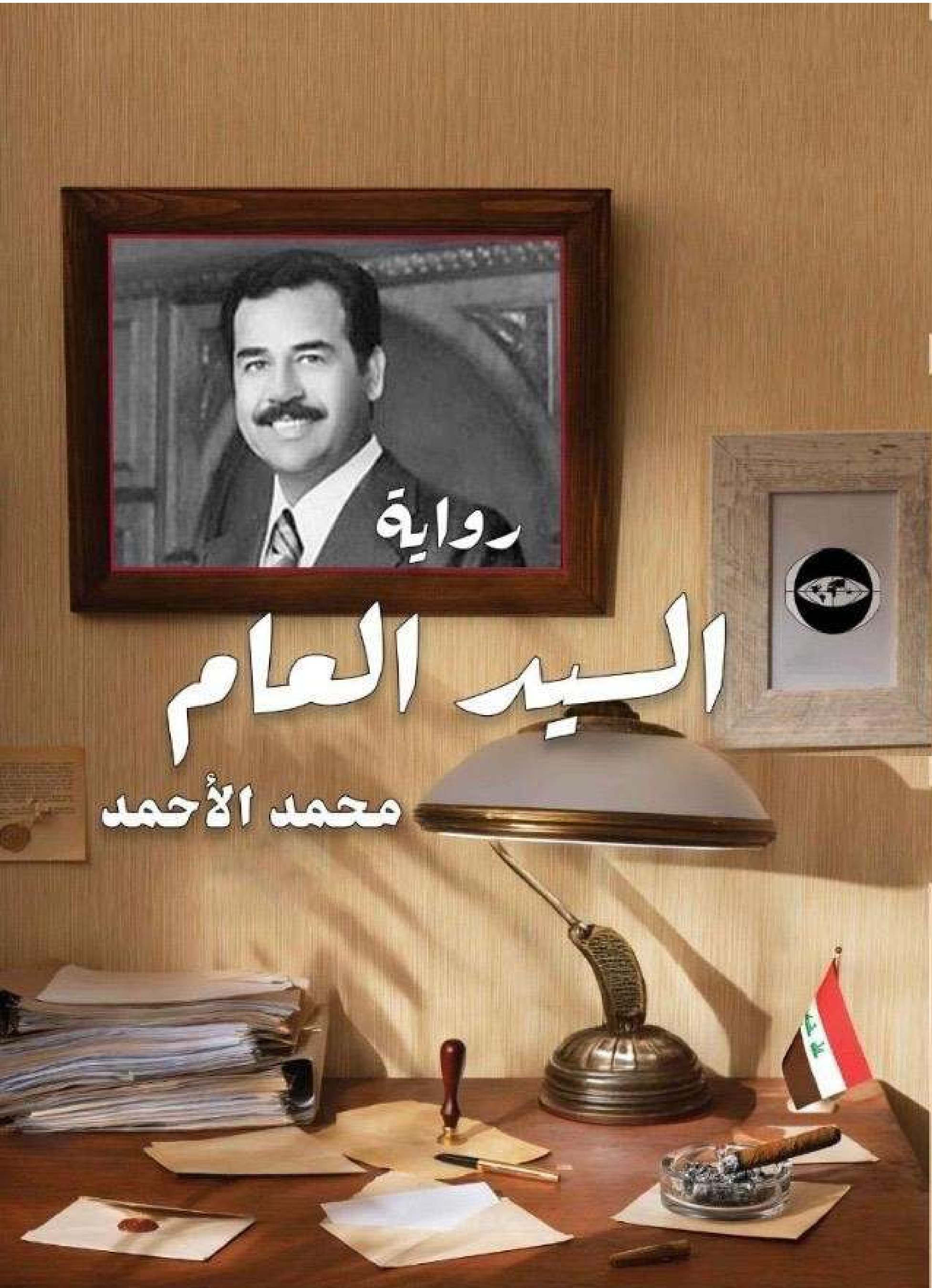

السيد العام
رواية
محمد الأحمد

هذه الرواية عن جهاز المخابرات العراقي وزنازين الأقبية القرمزية، لتكون مفتاحاً تاريخيا يلجُ به "الروائيون" من بعدها الى مساحات جديرة بإعادة النظر، إذ تكشف عن المسكوت عنه والمقموع في تاريخ القهر السياسي، الرائدة في جرأتها، الفاعلة في ابداعها، والواعية في حيادها، فتح جديد في طريقة كتابة الرواية العربية والعراقية، لأنها وثيقة تهمّ المثقف الفاعل حتى تكون لديه الفكرة الأكيدة الشاملة عن أربعين عام من تاريخ العراق السياسي، ربما وأكثر.. رواية كاشفة عن ويلات قد حدثت

القائمة القصيرة التي أعلنت عنها جائزة كتارا للرواية العربية 2024م

دار غراب للنشر والتوزيع

كتارا
katara

السيد العام

الطبعة الأولى
١٤٤٦ هـ ـ ٢٠٢٤

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع
٢٠٢٤/٠٠٠٠٠

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر
إعداد إدارة الشئون الفنية

الأحمد، محمد

السيد العام/ رواية محمد الأحمد، ط١ - القاهرة: دار غراب للنشر والتوزيع: ٢٠٢٣
٢٠٩ صفحة؛ ١٤ x ٢٠ سم

تدمك: ٠-٠٠٠-٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

دار غراب للنشر والتوزيع

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠
مدينة نصر ـ القاهرة
ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف
ديما المصري

التنسيق والإخراج
فريق عمل الدار

رواية

السيد العام

محمد الأحمد

«حين أموت سيطلبون عقد السلام معك والتوصل إلى اتفاق، سيرسلون لك شخصاً تثقُ فيه، شخصاً من طرفنا من جماعتنا أو عائلتنا؛ وسيطلبون موعدا لعقد اجتماع من أجل السلام على نحوٍ دائمٍ، وخلال هذا الاجتماع سيتم اغتيالك أيّا كان هذا الشخص الذي سيرسلونه لكَ من أجلِ تحديد موعد الاجتماع، قُمْ بالتخلّصِ منهُ، أنه الشخص الخائن». * «ماريو بوزو».

***

«هذه الرواية أحداثها خيالية وليست حقيقية، لكنها قريبة الشبه مع تطابق الأحداث التاريخية، تطلبت تدعيم الحدث الخيالي بالحدث التاريخي، واستحداث إيقاع هارموني متواصل مع شهادة الشهود، لسان خيال الكاره، أو المحب».

***

«أن يكون الهدف [1] بتمامِ وعيه وقادراً على الإدلاء بأقواله بحرية ودون أيّ تأثير، أو تهديد، أو إغراء، وعلى علم تام بالتهمة الموجهة إليه، وبالأدلة المستخدمة ضده، ويكون عارفاً بحقوقه القانونية، ويكون عليه تدوين الاعتراف بخط يده، وبكامل ارادته».

***

الروايةُ الحقّة تقولُ ما يحجبهُ التاريخ

* «كارلوس فونتيس»

---

(١) الهدف هو شخص متهم مطلوب التحقيق معه لدى أجهزة المخابرات..

القسم الأول

بخط اليد

٢٣ أيلول ١٩٩١

رفعوا لي حاجز الباب الكهربائي، ثم تقدمتُ بسيارتي إلى الداخل العميقِ حتى الساحة الرئيسة لوقوف السيارات، ولم يعترضني أحد من موظفي الاستعلامات أو من الحراس، بأي سؤال، كانوا يعرفوني جيداً. تركوني أضع سيارتي حيثما كنتُ أضعها في السابق. استقبلتني الوجوه مُرَحِبة، مُبتسمة وهي تلقي عليّ أرقّ التحايا.. وبقيت الترحيبات تباغتني من كل حدبٍ وصوب.. كما لو كنت لم أزل رئيس دائرتهم. تقدمتُ متهادياً بخطوات عارفة إلى الممرِّ الذي يصل بي نحو المصعد الكهربائي الخاص بمكتب المدير العام، الذي قضيت فيه أكثر من ست سنوات كمسؤول مباشر مطلق.

وكعادتي لم أكن أرغب أن يوصلني أحد، أو يفتح لي باب المصعد، كما يرغب غيري؛ فتحته كما كنتُ أفتحه، ليصعد بي إلى الطابق الثالث، في البناية التي أنا من وضع تصميمها، وتقسيمها وفق ما رأيته حينها مناسباً، فالطابق الثاني هو قاعة السينما والاجتماعات، والطابق الأول خصصّته لغرف الإدارة لتكون بمظهر أية دائرة من

دوائـر الدولـة فيهـا السـعاة والسـواق، وعـمال الخدمـة مـن المنتسـبين، أمـا بقيّـة الطوابـق الأربعـة العليـا خصصتهـا لإدارة المديريـات الرئيسـة، وحرصـتُ أن يكـون كل طابـق، وكأنـه بنايـة لوحدهـا ، فـلا يمـرّ طابـق بالآخـر، ومـن يريـد الوصـول إلى دائـرة مـن دوائـر الجهـاز عليـه أن ينـزل إلى الطابـق الأرضي، ومنـه يصعـد إلى المديريـة المطلوبـة. عمـل كل مديريـة مفصـول عـن الأخـرى ومسـتقل تمامـا، وكنـت أريـد بتشـدّد ألا يعمـل أي فـرد إلا بتخصصّـه، وتـرك شـأن غـيره مـن الأعـمال لـذوي الشـأن. ولا يجـوز الصعـود أو النـزول إلّا بعلـم الموظفـين المختصـين التابعـين للحراسـة، وبواسـطتهم يتـم تشـغيل المصعـد الكهربائـي. أوجـدتُ للجهـاز منهجـا في الهيكلـة الإداريـة المنضبطـة، والتـي مـن الصعـب العمـل بغيرهـا.

تهاديـتُ متأبطـاً حقيبـة أوراقـي، التـي فيهـا نسـخة مـن التقريـر الـذي أَعددتـهُ بشـأن عواقـب دخولنـا إلى «الكويـت»، وبرويّـة دخلـتُ غرفـة المديـر العـام مبـاشرة دون أن أُعلـم السـكرتير. وكأني أبـاشر طبيعـة مهامـي، لأقـرأ مـا اسـتجد مـن البريـد، وأكتـب لـه الـردود العاجلـة أولا بـأول.. لكـن؛ هـذه المـرة بصفـة الزائـر الـذي لديـه مـا يحتاجـون إليـه.. توقعـت انتظـار المديـر لي في مكتبـه، ولكننـي لم أجـده..

لم أشـتقْ لعمـلي السـابق عـلى الإطـلاق ولأن العـودة إليـه غـير مرضيـة،

بعـد أن طـرأت تغـيرات جمّـة في السـاحة الدوليـة، تغـيرات وانعطافـات خطـيرة، خاصـة بعـد التشـديد عـلى حصارنـا، بـكل مـا هـو ممكـن.. اذ نصحـتُ بعـدم الانجـراف إلى ذلـك الفـخ الأمريكـي اللعـين، وبالتخلـص مـن مأزقـه بـأسرع وقـت. ولعـلّ ذلـك هـو سـبب دعـوتي لمناقشـة محتـوى التقريـر، وتلبيـة لمـا هاتفنـي بـه المديـر الجديـد بـضرورة تواجـدي في مكتبـه بتـمام السـاعة العـاشرة مـن هـذا الصبـاح، لم أكـن متفاجئـاً، ولكـن طلبـه المرتبـك جعلنـي لا أؤجـل ذلـك.

استقبلني السـكرتير الـذي لم يعـد سـكرتيري، مهلّـلاً ومرحبـاً بي عندمـا وجـدني داخـلاً غرفـة المدير العـام، تقـدم يخـبرني بهمـس: «السـيد العـام خـرج منـذ دقائـق إلى مشـوار قريـب».. حيـث لم تتغـير أغلـب التفاصيـل في المـكان كثـيراً، إلا باقـات ورد كثـيرة كان حضورهـا ملفتـاً، وزرعـت بابتـذال في أرجـاء الممـر المـؤدي إلى مكتـب المديـر الـذي لم يتغـير مكانـه، مثلـما تركتـه. (محـروم مـن حاسـة الشـم، ولم أسـتطع ان اشـمّ شـيئا منـذ الطفولـة)

كـدتُ أن أخـبره بـأني سـوف أعـود إليـه في وقـتٍ لاحـق مـن هـذا النهـار، لكنـه باغتنـي قائـلاً بـأن «السـيد العـام لـن يتأخـر» ثـم أضـاف:
- طلبـك بنفسـه ويمكنـك انتظـاره وأن تـشرب معـي قهوتـك في مكتبـي

حتـى يعـود.. سـيدي»، كأنـما أحسسـت في الكلـمات الأخـيرة ترتيبـا غـير مقنـع.

أثنـاء ذلـك سـمعتُ همهمـة ليسـت عاديـة، تشـير إليَّ، فلمعـت في ذهنـي أن دعوتهـم لي لم تكـن بغـرض المشـورة، إن ذلـك الاسـتدراج لم يخـفَ عـليَّ، وكـدتُ أتيقّـن أن أمـراً آخـراً قـد يكـون مبيتـا.. كيـف يمكنـه ان يدعـوني إلى الانتظـار في غرفـة أخـرى»، لقـد تعلمـت الاسـتنتاج قبـل أن تحـدث الحـوادث، ولم تبـدِ لي دعـوة الزيـارة هـذه مـن الأمـور الغريبـة»، فـكان عـليَّ أن أعمـل عـلى إزاحـة مـا جثـم عـلى صـدري. سـألته «مـا الأمـر؟» ولأني كنـت مطلعـا عـلى أحوالـه في السـابق، عهدتـه يتهـرّب مـن جـوابي، ثـم باغتَّـه بسـؤال آخـر عـن حالـة والـده المريـض الـذي كان يتطلّـب علاجا كيميائيـا، وأجابنـي بانكسـار، «ما يـزال بحاجـة إلى المتابعـة الطبيـة الدائمة». لم تكـن مسـبحة يـدي تفـارق يسـاري تشـبثت بخرزاتهـا أدقـق فيـما حـولي، ورحـت أتنفـس بعمـق متمنيـاً لـه دوام الصحـة، فالأغلـب مـن المنتسـبين لم يغـادروا مناصبهـم، ومعظمهـم كانـوا معـي، بعـد أن أحدثـت تغيـيرات واسـعة لمجمـل الهيئـة الإداريـة والخدميـة وعملـت عـلى إبعـاد كل أفـراد المجاميـع التـي بقيـت تتحكـم في مفاصـل الجهـاز، وبالأخـص مجموعـة «السـيد العـام» أخيـه غـير الشـقيق في إدارة الجهـاز، الـذي تـمّ عزلـه بسـبب تصرفاتـه التـي لم تكـن تليـق بمنصـب رئيـس جهـاز المخابـرات والحـدّ مـن

تدخلاته المباشرة وغير المباشرة – يومها –طلب منهم الحضور جميعا في قاعة السينما وقال على مسامعهم بتهديد مباشر، «أنت المدير الجديد الذي سوف يرأس الجهاز»، وأكمل عليهمُ مخاطبا:

-»له الصلاحية المطلقة في تهيئة الجهاز لما هو مرسوم بذهنه، ولا أقبل أي اعتراض عليه سوى خيانة الدولة أو سرقة المال العام».

وهكذا تمّ منحي صلاحيات أوسع من صلاحيات المدراء الذين سبقوني. وعملت على إزاحة تلك الرؤوس التي كانت تعيق فعالية أهم أقسامه وشعبه وفروعه. أبعدت كل من له علاقة وثيقة بالمدير العام السابق، الذي بقيّ متنفذاً على مفاصل الجهاز برمته حتى بعد أن تسلم منه «هشام الفخري» الذي سبقني في المنصب[١]، ولم يفلح بالتخلص من تدخلاته المباشرة، وبقيَ يدير الجهاز في الخفاء. حتى اعتذر بديله عن مواصلة المهزلة، وطلب إعفاءه.

بعد أن تمّ اختياري للمنصب. وجدتُ نفسي في مأزق حقيقي، فالرجل بقيَ مهيمناً، وكان يعتبر نفسه القائم الأبدي على إدارة الجهاز، ولا يريد تركه، وعندما ترك المنصب لم يفارقه إلاّ مكرهاً، وبقيَ يفرض نفسه بسطوة قرابته، ويجعل من أي مدير مديراً هامشيا،

---

(١) منصب بدرجة وزير

وبقـي المتحكـم الراسـخ. ففـي عهـده ابتكـر تسـمية غـير رسـمية «السـيد العـام» فـرض المخاطبـة بهـا، وباتـت فيـها بعـد مـادة تهكـم عليـه، سرّاً رغـم حبـه لتلـك التسـمية، ويراهـا تليـق بـه مـن بعـد أن أعطاهـا كل اهتمامـه لكـي تجعلـه قويـاً حصينـاً ويحمـي بهـا الدولـة مـن أعدائهـا في الخـارج ومـن الأعـداء المتسـللين إلى داخلهـا، الرجـل لم يكـن ببالـه أن أخـاه سـوف يعزلـه في يـوم مـن الأيـام، ومـن بعـد أن حكـم لـه البـلاد بالنـار والحديـد بواسـطة الجهـاز؛ إذ كان يطمـح بقـاءه بجانبـه يشـاركه جميـع صلاحياتـه مـا دام معـه عـلى رأس السـلطة. فتلقـى دروس أشـهر مناهـج المخابـرات التابعـة لـدول أوروبـا الشرقيـة... وذهـب في زيـارات سريعـة، وبعضهـا تلقاهـا في «بغـداد» خـلال فـترة تسـلم «سـعدون شـاكر»[1] لرئاسـة الجهـاز في عـام ١٩٧٣، وحـاول التعلـم والاطـلاع عـلى أحـدث مـا توصـل إليـه علـم المخابـرات في العـالم.. وأصبـح مسـؤولًا عـن جمـع المعلومـات وحفـظ الأمـن ومكافحـة التخابـر والتآمـر ضـد الحـزب القائـد، ومـن بـين أكـبر القـوى السـاحقة لأي منافـس لأخيـه.

وسـار عـلى مسـيرة سـابقه، وربـما بطريقـة أكثـر بشـاعة مـن سـابقه

---

(١) «سـعدون شـاكر» وزيـر الداخليـة العراقـي الأسـبق، وتنحـدر عائلتـه مـن مدينـة «بعقوبـة»، قريـة الحـد الأخـضر المطلـة عـلى نهـر ديـالى ولـد في عـام ١٩٣٩ سـاعد في تهريـب صـدام حسـين مـن السـجن في عـام١٩٦٦ وعُـين رئيسـاً لجهـاز المخابـرات في عـام ١٩٦٨. بعدهـا أصبـح وزيـراً للداخليـة في عـام ١٩٧٩ وعضـواً في القيـادة القطريـة في عـام ١٩٨٧.

«سعدون شاكر» الذي كان يستخدم الأساليب القاسية والوحشية للتحقيق مع المشتبه بهم والمعارضين. خاصة بالنيل من الشخصيات الشيوعية التي كانت تشكل خطرًا على استقرار السلطة، وقد حاول التخلص منهم بأية طريقة ممكنة.

الرفيق «سعدون شاكر» وزير الداخلية كان الصديق الأقرب للرفيق «صدام»، ومن بين أوثق المقربين، والشخصية الثانية بعده في الجهاز الأمني لحزب البعث العربي الاشتراكي، «حُنين» اللبنة الأولى التي أنشئت بأمر من «الرئيس البكر»، وصار بفضلها المُتنفذ في قرارات الحزب فأزاح كل معترض، وجعل من «الأب البكر» في قمة قيادة الدولة العراقية. حيث تعززت مكانته، ورفع من شأنه، لذلك منحه منصب «نائب رئيس الجمهورية».

بقيّ أخوه غير الشقيق -حسب تقديري- من المدراء الأكفاء، الذين وضعوا الجهاز في حال جديد، لكنه لم يضع لبنات ثابتة تخضع الجميع تحت معيار واحد، وتلك من بين أول النقاط التي لم تكن في صالحه، حيث «الرئيس» لم يكن بطبعه التعاطف مع أي مخطئ كان مهما كانت درجة قرابته، أو موقعه.. فلم تنفع «برزان» قوته وجسارته مع من لا يعرفهم. تراخى عهده، وتسامح مع بعض الاقرباء، وكلام ليلهِ

يمحـوه النهـار، وقبـل الوسـاطات بجميـع أشـكالها، وبـات يغفـر لأيـة جريمـة يتوسـط عنـده أي فـرد عزيـز. كأنـه لم يكـن يـدري أن هـذا المنصب هـو العصـب الرئيـس للدولـة كلهـا، ولـه فعاليـة خطـيرة تـوازي صلاحيـة «الرئيـس»، وتجعـل منـه الرجـل الثـاني، وأن العاطفـة تحـدث خلـلا في مرافـق الدولـة، وتضيـع المركزيـة الحاكمـة باسـم القانـون.

العـزلُ جعلـه يغتـاظ كثـيراً، كأنـما فقـد نفـوذه وكبريـاءه.. وبقـي يـردد «يكفينـا فخـراً إن المعـارض الموجـود في واحـدة مـن مقاهـي «باريـس» أو «بـراغ» عندمـا يحـاول أن ينتقدنـا يتلفـت يمينـاً أو شـمالاً خوفـاً مـن وجـود ضابـط مخابـرات إلى جانبـه».. خاصـة بعـد عمـل الجهـاز عـلى التمويـل الـذاتي، إذ قـام بـشراء عقـارات مهمـة، كالمطاعـم الشـهيرة، وبعـض الفنادق الفخمـة، في أماكـن متفرقـة مـن العـراق وعواصـم العـالم. تـم تسـجيلها بأسـماء منتسـبين أو وكلاء يثـق بهـم، بغيـة جعـل محصلـة الأربـاح تصـبّ في ميزانيـة تمويـل عمليـات نوعيـة تعـزز مـن مكانـة الجهـاز. ليتمكـن مـن سـيطرته عـلى المفاصـل دون الحاجـة إلى العـودة إلى مركزيـة الدولـة.. ولم يتنبـه إلى أن ذلـك جعـل مـن «الرئيـس» يتوجـس مـن تصرفـه، أخـوه سـوف يمتلـك القـوة النظـيرة لقوتـه، وقـد تنافسـه في المسـتقبل.

*****

حضر اثنان من المنتسبين سلم أحدهم عليَ، وهمس الثاني في أذن السكرتير الذي بقيَ يتعامل معي كضيف؛ فالأغلب منهم ينحدر من عشيرة «البيجات» التي تجمعني بهم صلة القرابة، كونهم من أفخاذ وفروع تتخذ من قرى «تكريت» مواطن لها، وقد أكون تعاملت مع آبائهم وأعمامهم. وماتزال تربطني بهم علاقات وشيجة.

تأخر الأمر، و»المدير العام» لم يأتِ إلى مكتبه، فبادرت إلى فرك المسبحة وكانت من حجر الشيح، وليتني كنت اتعرف على رائحتها الزكية كما يقولون، ولكني تعودت منذ الصغر ألا أعترف لأحد بأن أنفي لا يشمّ الروائح على الإطلاق، ومن ثم وضعتها على مكتب السكرتير، الذي بادر بقول «هات شاياً آخر للسيد اللواء».. شكرته، ورحت أواصل التدقيق في التقرير بعد أن أخرجت نظارتي من علبتها، ورحت أفتعل انغماسي بعيدا عن همهمتهم، كنت أراقب بطرف عيني وكأني غير معني بأمرهم. رنّ الهاتف وجاء إلى السكرتير صوت آمر، وأجاب «نعم سيدي.. حالا».. بادرني:

- سيدي طلبوا مني تسلم سلاحك الشخصي؟

كررت بعده:

- «سلاحي؟! بكل سرور تفضل»، وانتزعته من حزامي، وقدمته

إليـه مـع مخـزن الإطلاقـات.

ثم قال: «سيدي أنت خير من يعلم أنَّ الأوامرَ هي الأوامر»

افتعلـتُ أني لم أهتـم بـما سـمعت، ولكنـي أيقنـت أني لسـت في مقابلـة، ولعلنـي أكـون رهـن تحقيـق في أمـر مـا...!

******

دراسـتي في المرحلـة الابتدائيـة كانـت في مدينـة «تكريـت»، واكملـت الثانويـة في «سـامراء» في مطلـع السـتينيات، وعـلى الرغـم مـن أني لم أجنـح إلى الاختـلاط مـع أولاد عمومتـي، إلّا أن الوظيفـة جعلتنـي عـلى اتصـال دائـم بهـم. ولكنهـا في الوقـت نفسـه جعلتنـي أتحسـس التقـرّب مـن دائـرة أخـوة الرئيـس، وكنـت البعيـد عـن تلـك الدائـرة القريبـة، لم أتعامـل مـع المُتَعجرفـين الذيـن يعتـبرون الآخريـن عبيـداً لهـم، بعـد أن تسـلموا أرفـع المناصـب في الدولـة. قاومـت قـدر مـا اسـتطعت ذلـك الخبـث المقيـت في عجرفـة القرابـة. أسرتي نشـأت وعاشـت في مدينـة «بيجـي» بـين عشـائر «الجبـور» و»الجُمَيْـلات» و»العُبيـد»، وكانـت «البـو موسـى الفـرج» وثيقـة الصـلات بينهـا وبقيـة فـروع العشـيرة، وجـدت نفـسي واحـداً منهـم، ومعروفـاً بينهـم، تفوقـي في الدراسـة جعلهـم يوقنـون بـأني الشـخص الـذي لا يقبـل الترويـض، والتهـاون مـع أي متعـال.

عندما حدثت حركة ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣م التي أقصت «حزب البعث» عن السلطة، كنت في الصف المنتهي بالكلية العسكرية وعلى أبواب التخرج منها برتبة «ملازم ثان» ولكن الرئيس «عبد السلام عارف[١]» أصدر قراراً منع بموجبه المتخرجين البعثيين من الالتحاق بالجيش، وكنا بحدود عشرين شاباً، فنسبتُ إلى وظيفة مدنية في مديرية الإعاشة العامة كمراقب مخابز، استمرت لأكثر من عام.

وعقب انقسام حزب البعث في العراق إلى شقين، أحدهما ارتباطه بالقيادة القومية في سورية «قيادة صلاح جديد» والثاني ظل على ولائه إلى «ميشيل عفلق». أدى ذلك إلى قيام أغلب أعضاء الحزب الغيورين بالعمل على إعادة لمّ الشمل، وكان من بينهم «الرفيق صدام» الذي لم يكن معروفا في الوسط الحزبي، آنذاك. وفي اجتماع حزبي حضر لرأب

(١) «عبد السلام عارف» هو سياسي وعسكري عراقي، وهو الرئيس الثاني للجمهورية العراقية بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ التي أنهت النظام الملكي. ولد في بغداد عام ١٩٢١ التحق بالمدرسة الحربية الملكية وتخرج فيها عام ١٩٤٠، ثم التحق بكلية الأركان العراقية والتركية. تدرج في الرتب العسكرية حتى بلغ رتبة عقيد ركن عام ١٩٥٧. انتمى إلى تنظيم الضباط الوطنيين وترأس التنظيم عام ١٩٥٦. ومن بين أبرز المشاركين في قيادة ثورة ١٤ تموز. تمت ترقيته بعد حركة ٨ شباط ١٩٦٣ الى رتبة مشير ركن بعد ان أصبح رئيسا للجمهورية وهو ثاني شخص يحمل هذه الرتبة على مستوى الوطن العربي بعد المشير اركان الحرب عبد الحكيم عامر.

الصدع وكأنه من بين أبرز قياداته. التقيته أول مرة، وأخبرته صراحة أثناء المقابلة ذاتها أني شعرت بالفخر بالتعرف إليه، لحظتها، لإني كنت قد سمعت باسمه يتردد في محاكمات «المهداوي»[1] كواحد من المتهمين الذين هاجموا الزعيم «عبد الكريم قاسم» وأطلقوا عليه النار في السابع من تشرين الأول ١٩٥٩ . وعقب تلك الحادثة بدأ ارتباطي بحزب «البعث العربي الاشتراكي».. كنت طالباً في المرحلة الثانوية التي أكملتها في العام التالي، وقدمت أوراقي للانتساب إلى «الكلية العسكرية ببغداد». توسط لي ضباط بعثيون، وتمّ قبولي فيها إلى جانب عدد من زملائنا البعثيين منهم «عبد الرحمن محمود الدوري»[2]،

(١) «فاضل المهداوي» هو ضابط عراقي ورئيس المحكمة العسكرية العليا الخاصة التي شكلت بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨١٢. ولد في بغداد عام ١٩١٥ وهو ابن خالة الزعيم عبد الكريم قاسم. شارك في حركات عسكرية مختلفة مثل حركة مايس وحرب فلسطين وانقلاب الرابع عشر من تموز. كان يمثل الجناح المعتدل في الضباط الأحرار وكان قريبا من الطبقات الفقيرة. تولى رئاسة المحكمة العسكرية التي محكمة العديد من المسؤولين في النظام الملكي وجميع المعارضين لنظام عبد الكريم قاسم.

(٢) ولد «عبد الرحمن محمود الدوري» في بغداد عام ١٩٤٥، وتخرج من الكلية العسكرية دورة ٤٤ صنف درع. وهو من المشاركين في ثورة تموز ١٩٦٨. تسلم مناصب عديدة كانت أهمها أمين سر فرع بغداد العسكري وأمين سر فرع الجنوب العسكري وأمين سر فرع عمورية، سفير العراق في الاتحاد السوفيتي، مدير الأمن العامة ١٩٨٧-١٩٩١، محافظ النجف الأشرف، بعدها أصبح عضو قيادة قطر العراق واستلم منصب مسؤول محافظات الفرات الأوسط والموصل. تميز بشعبية واسعة من قبل أهالي الفرات الأوسط. فيما بعد جُرد من كل مناصبه ووضع تحت الإقامة الجبرية ولا أحد يعرف السبب.

الـذي أصبـح مديـراً عامـاً للأمـن، وعضـواً في القيـادة القطريـة للحـزب، و«سـعد عبـد المجيـد الفيصـل»[1] وكيـل وزارة الخارجيـة الأسـبق، و«نوفـل إسـماعيل» قائـد الحـرس الجمهـوري السـابق.

******

الرسيلُ في لعبة الشطرنج تعني الخصم الذي يلعب أمامك..

دائـماً المباغتـة يتخللهـا تسـويل النفـس، أن تغـدر بمـن تريـد أن تباغتـه، إن تأخـرت عنـه قليـلا؛ سـبقك، وقـضي عليـك قبـل أن تسـتل سـلاحك.. المباغتـة؛ أن لا تجعـل عـدوك يعلـم أنـك متأهـب، فيكمـن لـك، وعندمـا تسـتقر في نقطـة واحـدة تجعـل منـه يقـر القـرار بالانقضـاض عليـك سـاعة يريـد.

******

طلبـوا منـي بـكل احـترام أن أضـع الكيـس الأسـود عـلى رأسي، وأن ألبسـه حسـب السـياقات. برغـم دهشـتي مـن غرابـة الطلـب، وأن أضـع

(١) «سـعد عبـد المجيـد الفيصـل» هـو سـياسي ودبلومـاسي عراقـي سـابق، وأحـد أبـرز القـادة البعثيـين ولـد في تكريـت عـام ١٩٤٤، مـن المشـاركين في الانقـلاب العسـكري عـام ١٩٦٨ الـذي أوصـل حـزب البعـث إلى الحكـم، وعـين في عـدة مناصـب أغلبهـا في السـلك الدبلومـاسي والعمـل الحـزبي. كان مسـؤولا عـن تنظيـمات البعـث في شرق أوروبـا وكذلـك وكيـلا أقـدم لوزيـر الخارجيـة.

يـديَّ إلى الخلـف كـي تجمعهـا الجامعـة الفولاذيـة. عـلى الرغـم مـن إني كنت رئيسـهم الأعـلى في هـذه المؤسسـة، وينبغـي عليهـم أن يعاملـوني بالاحـترام الكبـير، حيـث أعـرف جميـع مفاصلهـا الإداريـة، مثلـما أعـرف جميـع أفـراد طاقمهـا مـن الصغـير إلى الكبـير، فالصغـار هـم القاعـدة العريضـة ومـن النـادر أن تتغـير، خاصـة في مثـل طبيعـة هكـذا عمـل يتبدل رؤسـاء الشُعَبِ لأنهـم في موقـع منافسـة، وتبقـى البطانـة العريضـة التـي تتبـدل مزاجيـا لتوافـق طبيعـة مديـر الشـعبة الجديـد.

لذلـك مـن تعامـل معـي قبـل عـام، أيـام كنـت مديرهـا العـام، بقـيّ على يقـين أني في أزمـة مؤقتـة، وينبغـي عليـه التعامـل باحـترام، باطنـاً وظاهـراً حتـى يتبـين السـبب الحقيقـي لاسـتدعائي وزوال هـذا الظـرف، فالرجـال مواقـف. خاصـة مَـن مثلي سـاهم في ترسـيخ هـذه المؤسسـة لتحمـي نظـام دولـة يعتمـد عـلى قانـون يشـد مفاصلهـا.

بـدا لي أنهـم لم يعرفـوا السـبب الحقيقـي الـذي جعلنـي محتجـزا لديهـم، وأخضـع للسـياقات التـي يجـب أن يلتـزم بهـا أي محتجـز، وصرت أنتظـر الأسـئلة التـي سـوف توجـه لي وأعـرف مـن خلالهـا الصـورة التـي حشرت بداخلهـا.

أفهـم جيـدا أن أي عمليـة «تحقيـق» لابـد أن تـوازي جولـة في مبـاراة

شـطرنج. الشـطرنج لعبـة فكريـة مهمـة تدخـل في جميـع مفاصل هـذه الحياة، وخاصـة في مفاصـل هـذه المهنـة، التـي يعمـل فيهـا العقـل، دون أيـة عاطفة. فالمحقـق يلعـب باللـون الأبيـض (قانـون اللعبـة يشـترط اللاعـب بالقطـع البيـض المبـادرة في اللعـب اولاً)، والمتهـم يلعـب باللـون الأسـود. التحقيـق منـاورة بـين رسـيلين، لعبـة أسـئلة يبدؤهـا الأبيـض حسـب القانـون ويـرد عليهـا الأسـود. الـذي يمتلـك خيـالاً أوسـع هـو الـذي يفـوز، لأنـه يضـع نهايـات اللعبـة، ويحتفـي بالفـوز. الحكمـة أن يبقـى اللاعـب متنفسـاً بعمـق، يتمهـل في اختيـار الـرد المناسـب، فـكل سـؤال في التحقيـق يفتـح إلى سـؤال آخـر، وعندمـا يتمكـن اللاعـب مـن فهـم الغايـة مـن السـؤال، يتمكـن مـن غلبـة المحقـق. اللاعبـون الكبـار لا يمكـن هزيمتهـم.

علـيّ أن أحـدّد الغايـة مـن هـذه المبـاراة، وهـذا التحقيـق الـذي لا مـبرر لـه، وأن أطلـب منهـم إحضـار اللاعـب المقتـدر. فانـا أعـرف جيـداً عـن طبيعـة ذلـك الإنسـان الـذي لـن تتغـير طباعـه بسـهولة، فيـكاد أن يبـيّن مهـما تخفـى، أو تصنّـع، ثمـة طبـاع منـذ الطفولـة، ومهـما تكلـف الإنسـان في تغطيتهـا، فأنهـا متأصلـة لا يمكنـه الخـلاص منهـا بسـهولة، تصبـح مـن الطبائـع كأنـما جينيـة موروثـة. «فالطبـع غلـب التطّبـع».

******

لم أقبل الاستهانة بدور العقل وذلك يستفزني كثيرا، ويجعلني أخرج من طوري لأقاوم بالبرهان والقرينة، وتلك الصفة جعلتني أفقد أول وظيفة مهمة في حياتي..

في أعقاب انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨ عدنا إلى الخدمة العسكرية، وتمّ منحي رتبة «نقيب» حسب الاستحقاق، وانتدبت للعمل في القصر الجمهوري وتم اختياري كمرافق «رئيس الجمهورية»، وبقيت في المنصب عاماً وبضعة شهور عندما أمر «الرئيس البكر» بطردي نتيجة تلاسني مع زوجته خلال اتصال هاتفي.

وأصدر أمراً جمهورياً بإعادتي إلى وظيفتي السابقة في الإعاشة، وبعد ذلك بأيام عهدتُ «الرفيق صدام» يزورني في تلك الدائرة، وكشف لي أنهُ مهتمٌ بيّ بعد أن استحسن الموقف والجرأة، وفي حاجة إلى تمتين الحلقات القريبة المرتبطة به، فسعى إلى تعينني آمرا لقوة حماية الإذاعة في منطقة «الصالحية» وسط بغداد، ولم يجرؤ على التدخل المباشر في ذلك الوقت، وجعل من «نائب الرئيس» الفريق «حردان التكريتي[1]» يقنع

(١) «حردان التكريتي» هو سياسي وعسكري عراقي سابق، ولد في مدينة تكريت عام ١٩٢٥، تخرج من الكلية العسكرية والكلية الجوية، وشارك في عدة انقلابات ضد النظام الملكي وحكومة عبد الكريم قاسم. تقلد عدة مناصب مهمة، مثل وزير الدفاع ونائب رئيس الجمهورية، اغتيل في الكويت عام ١٩٧١م.

رئيس الجمهورية بالعدول عن قراره والموافقة على تثبتي في الإذاعة، كوني من الضباط البعثيين الملتزمين، عندها تحقق مراده، وجعل مني مدينا له.

******

عندما خطط الضابط المتقاعد «محمد الجنابي» بالاتفاق مع اللواء «عبدالغني الراوي»[1] والعقيد «محمد بكر» والعقيد «سليمان الدركزلي» بالتحضير إلى قيادة انقلاب على سلطة حزبنا، لعب الحظ دوره معي، وكنت من بين أول الذين فاتحوهم بالانضمام، وبحسب ظنهم أني من الذين يكرهون «البكر»، كونه عاقبني وأبعدني عن القصر الجمهوري، وتعاوني مفيد للسيطرة على مبنى الإذاعة والتلفزيون، وقبل أن أعطي موافقتي ذهبت إلى «الرفيق صدام» وأبلغته بما جرى معي، فطلب مني أن أسايرهم، ومعرفة موعد تحديد ساعة الصفر وأسماء أغلب المشاركين في الانقلاب المزعوم، وقبل ساعة الصفر وجد الأغلب منهم قد وقع في الفخ، وتم اعتقالهم ومن ثم محاكمتهم، وتثميناً

---

(١) «عبد الغني الرواي» ضابط وسياسي عراقي، شارك في الانقلابات العسكرية التي أسقطت النظام الملكي في عام ١٩٥٨م. كان وزيراً للداخلية ونائباً لرئيس الوزراء في حكومة «عبد السلام عارف». حاول الإطاحة بالحكومة في عام ١٩٦٤م ولكن فشل وهرب إلى إيران ثم استقر في السعودية حتى توفي هناك.

للدور في كشف تلك المؤامرة التي كان يقف وراءها «شاه إيران».. تم ترفيعي إلى رتبة «عقيد» ونقلي إلى موسكو ملحقاً عسكرياً في السفارة العراقية هناك، بدرجة مسؤول عن تنظيمات حزب البعث في الاتحاد السوفياتي.

خلال وجودي في «موسكو»، سعيت للحصول على مقعد دراسي لنيل شهادة الدكتوراه في تاريخ العراق الحديث، وقدمت أطروحة عن تاريخ الجيش العراقي ودوره في حركة «رشيد عالي الكيلاني[(١)]» ضد الإنجليز عام ١٩٤٠م، فيما تكفل اثنان من الأساتذة الروس بتقديم السند والعون لي بإعدادها، والإشراف عليها، وتمت مناقشتها وأنا أنافحُ فيها أن القومية العربية محرك مباشر دفع بالضباط لمطالبة بالتحرر من قبضة المستعمر، يومها صرت على يقين تام أن العالم تحركه مصالح الاقتصاد، وكل الحروب الظاهرة والباطنة نشأت لأجله، وما من

(١) «رشيد عالي الكيلاني» (١٨٩٢ - ١٩٦٥) سياسي عراقي من الرموز الوطنية العراقية، شغل منصب رئيس الوزراء ثلاث مرات أثناء العهد الملكي في العراق حيث كان رئيسًا للوزراء في الأعوام ١٩٣٣، ١٩٤٠، ١٩٤١. واشتهر الكيلاني بمناهضته للإنجليز ودعوته لتحرير الدول العربية من المستعمر ولتحقيق الوحدة فيما بينها، ولد في «بعقوبة» في محافظة «ديالى» من عائلة بغدادية سياسية لامعة في سنة ١٩٢١م شغل منصب الحاكم في محكمة التمييز والاستئناف وصار أستاذًا في كلية الحقوق. بدأ حياته السياسية متنقلًا في عدة مدن بين إسطنبول وبغداد والبصرة والموصل من خلال عمله في الجمعيات السرية التي كانت تنادي باستقلال العراق والوطن العربي عن الدولة العثمانية.

قضيـة حقيقيـة سـوى الاسـتحواذ عـلى الثـروات التـي اكتشـفها الغـرب، خاصـة أغنـى منابـع البـترول تختـزن تحـت أقـدام العـرب، والمعسـكران الغـربي والشرقـي، يتنافسـان عليهـا.

******

لم يسـتطع «الرفيـق القائـد» أن يعـبر الدراسـة الإعداديـة، بسـبب الانشـغال الحـزبي، وتلـك العقـدة اسـتطاع تجاوزهـا حالمـا تمكـن مـن مركـز السـلطة. كان ينظـر بعـين شـديدة الحـذر، وبتوجـس إلى كل ضابـط حقيقـي درس الأصـول في الكليـة العسـكرية. فأخـذ يمنـح الرتـب العليـا العسـكرية والمدنيّـة بقـرار منـه، ممزقـاً ذلـك الشـعور الخفـي الكامـن فيـه.

******

يبـدو لي أن الحرائـق التـي أشـعلتها مـن أجـل التفـاني بتثبيـت السـلطة، لم تكـن إلّا حرائـق كبـيرة لم يطفئهـا الإخـلاص. حرائـق وصلـت رائحهـا إلى امتـدادات واسـعة، لم أسـتطع تمييزهـا بالشـم وغالبـا مـا تختبـئ النـار تحـت الرمـاد. جمـرات نـار تسـعر. رائحـة لم اشـمها ابـداً.

في نهايـة عـام ١٩٧٦ عـدت مـن موسـكو وتنتظـرني وظيفـة مديـر عـام الأمـن الداخـلي، وعضويـة «المكتـب العسـكري لحـزب البعـث». عملـت

على تنظيمها وفق المواصفات الامنية السوفياتية، مهتماً بضباط أمن، وجدت فيهم إمكانيات متميزة في مكافحة الأحزاب والشخصيات السياسية المعارضة، وكانت المهمة الأولى التي نجحت فيها في الوظيفة الجديدة هي تفكيك تنظيمات الحزب «الشيوعي» العراقي الشريك مع حزب «البعث» في الجبهة الوطنية التقدمية، والحدّ من مزاحمة الحكومة خاصة الوزيرين «عامر عبدالله»[1] و«مكرم الطالباني»، وخلال عام واحد نجحت في التغلغل بين تنظيماتهم، بكشف أغلب الخلايا الشيوعية، واختراق قياداتها العليا، حتى حانت ساعة التخلص من شراكتهم في الحكم، والاتفاق بالسماح لقياديي الكوادر الشيوعية البارزة بالتوجه إلى الخارج، دون قيد أو شرط، لأجل أن تبقى القاعدة دون قيادة، ويسهل الإجهاز عليها.

******

---

(١) ولد العام ١٩٢٤م في مدينة عانه لواء الدليم في عائلة عربية عريقة في تقاليدها وانتمائها الوطني. أنتقل الى العاصمة بغداد في مقتبل شبابه وأنخرط في العمل السياسي في وقت مبكر. من خلال ملفه في مديرية الأمن العامة تبين أنه في العهد الملكي لم يعتقل غير مرة واحدة عام ١٩٥٢م بتهمة سياسية بسبب جرأته في فضح النظام، وتطوع للدفاع عنه ١٤٦ محامياً، والقى على أثرها كلمة مؤثرة وحادة ندد فيها بالحكام، وأُحيل إلى المحكمة، ولم يحكم عليه، كما ساهم مع قادة الحزب الشيوعي العراقي أبان ثورة ١٤ تموز بحملة جمع تواقيع نصف مليون مواطن ليطالبوا عبد الكريم قاسم بإصدار جريدة علنية للحزب، وكان من بين أبرز كتاب المقالة السياسية. استقر «عامر عبد الله» حتى أخر أيامه في بريطانيا.

اللـواء «هشـام الفخـري» القائـد العسـكري المحـترف لم يكـن يفهـم في شـؤون الأمـن والمخابـرات، اقـترح عـلى «الرفيـق صـدام» إطـلاق سراح الشـاعر «شـفيق الكـمالي»[1] والـذي اعتقـل في وقـت سـابق لـتردده عـلى منـزل سـيدة في مدينـة «الموصـل» بقيـت تثـير الشـك بعلاقاتهـا مـع الخـارج، ووافـق لـه عـلى ذلـك بمضـض، ومثلهـا توسـط لأطـلاق سراح زوجـة «محمـد عايـش»[2] المعتقلـة منـذ منتصـف عـام ١٩٧٩م ذلـك التعاطـف لا يصلـح لرئاسـة جهـاز المخابـرات، فأعـاده إلى الجيـش بعـد مـضي شـهور قليلـة، إضافـة إلى تذمـره مـن التدخـلات السـافرة التـي عهدهـا مـن لـدنْ المديـر السـابق.

******

بعدمـا كلفنـي «الرئيـس» بالتحـري عـن العلاقـات التجاريـة وجـرد أمـلاك أقربائـه المسـؤولين، وخاصـة الحسـابات السريـة للدائـرة القريبـة

(١) «شـفيق الكـمالي» هـو شـاعر وسـياسي عراقـي، وهـو أحـد قيـادات حـزب البعـث في العـراق. ولـد في «البوكـمال» في سـوريا عـام ١٩٢٩ وهـو مـن أصـل عراقـي. تخـرج مـن كليـة الآداب في جامعـة بغـداد وحصـل عـلى الماجسـتير مـن جامعـة القاهـرة. تـولى عـدة مناصـب وزاريـة اهمهـا وزارة الإعـلام ووزارة الشـباب والرياضـة. تـوفي في بغـداد عـام ١٩٨٤م

(٢) «محمـد عايـش حمـد» سـياسي عراقـي وأحـد أبـرز قيـادات حـزب البعـث في العـراق. ولـد في محافظـة الأنبـار سـنة ١٩٣٢ شـارك في حركـة ١٧ تمـوز ١٩٦٨م عـين وزيـرا للدولـة ووزيـرا للصناعـة. اعتقـل وأعـدم في قضيـة قاعـة الخلـد عـام ١٩٧٩م.

من رأس السلطة. انتابني شعور بأن نبوءة شقيقي الأكبر: «حفر قبري بيدي» قد أزف موعدها، خاصة عندما شرعت جادا في مسيرة إعداد ذلك التقرير الشامل، والدقيق. رأيت أن أتحرى عن تلك التروس الرئيسة ناقلة الحركة من الرأس الكبيرة إلى الشعب، تروس متعددة الأحجام، كل منها قام بدوره، كدويلة في متن تلك الدولة، ظاهرها يصبّ في مصلحة الدولة، ولكنها مخلصة لنفسها أكثر من إخلاصها للرأس الكبيرة. حيث تلك الدويلات العميقة التي هي في داخل النظام أخذت تتسع وتشكل خطرا كبيرا على رأس النظام، مهما كانت درجة القرابة فأنها كانت طامة كبرى تكبر مثل كرة الثلج النازلة من منحدر. هناك أسماء ظاهرة للعيان كأنها حيتان شكلت العصا التي تعيق العجلة. وأن متابعتي الدقيقة اشعلت الشرارة بيني وبين الجميع.

على الرغم من أن طلبه خطوة ليست جادة، لأنها تشمل كل المرافق الأساسية المكونة للنظام، وتؤدي إلى خلخلته. بقيتُ أراها مجازفة حقيقية ليست في أوانها، كلهمُ بلا استثناء بما فيهم زوجته وأقربائها، وأبناء العمومة وأقاربهم، الدائرة المحيطة، وحولها الدائرة الأكبر ثم الأكبر.. لكل منهم حسابات تتضخم ساعة بعد أخرى، لا يمكن تخيل أرقامها كبرت، وصارت تتنبأ بسقوطي كتمثال من الخزف. ذلك الأمر جعلني في أتون النار، وجعلهم ذلك الكشف

يتحـدون عـليّ، المتنفذيـن في الدولـة العميقـة اتحـدوا ضـدي بغيـة عـدم كشـف المسـتور، وبذلـك قـرار التخلـص منـي ‏أحـد أسـبابها- أني كنـت مـن بـين أكثـر العارفـين بمـكان الحجـر الـذي يسـدّ فوهـة الـبركان، والـذي عمـل عـلى إخفـاء مخاوفـه منـه. إضافـة إلى ورود اسـمي في وسـائل الإعـلام بـأني الجديـر الـذي تـم اختيـاره كبديـل لـه، وبذلـك ظهـر الـولاء للعائلـة ‏يقـوي رئيـس العائلـة- يكـون محـركا نحـو الالتـزام، وهـو مبعـث عـلى ارتبـاط بـين أفـراد العائلـة. «السـيد الرئيـس» اعتمـد عـلى عائلتـين وتمنـى ألا يكـون بينهـما شـقاق، وتبـدى لـه فيـما بعـد أن ذلـك الشـقاق هـو الـذي بـات يحميـه مـن التقلبـات، فالسـلطة مغريـة والوصـول إليهـا ليـس بالسـهل، فهـي غالبـا مـا تـأتي بـدم وتذهـب بـدم. عائلـة «حسـين المجيـد»، وعائلـة «إبراهيـم الحسـن»، التنافـس بينهـما كان الفتيـل الـذي إن انفجـر يفتـت الحجـر الصلـد الـذي يسـدّ فوهـة الـبركان.

******

لم يسبق لي أن دققت في جدران الزنزانة من الداخل..

عهدتهـا لوحـة سرياليـة تشـكلت بكتابـات صغـيرة موزعـة في أمكنـة متباعـدة، وسرّيـة.. لا يمكـن أن يراهـا مـن يمـرّ عليهـا سريعـاً، تذكـرُ أسـماء أشـخاص، وأماكـن، كأنـما وصايـا تُحمّـل الناجـين مسـؤولية الإبـلاغ

عـن المصـير المحتـوم، لوحـة مليئـة بالشـفرات السريّـة حـاول أصحابهـا تثبيتهـا بالحفـر بواسـطة الأظافـر، خطـوط ينـزّ منهـا الـدم، كتابـات نابضـة، ولكنهـا؛ قلـوب يائسـة، تركـت رسـائل اسـتغاثة، تكشـف عـن غيهـب السـواد الـذي أضفـى عـلى الزمـان نهاياتـه الخانقـة.

كأنـما بقـيّ المـكان مُضمّخـاً برائحـة عَطِـن لم أتمكـن مـن شـمّه يومـاً، عهدتـهُ ينطـق بأسـماء ضحايـا دفنـوا تحـت أخطـاء مصيريـة، لم تكـن تسـوّ كل ذلـك المـوت الـزؤام الـذي واجهتـه. أنظـر هنـا، وأقـرأ هنـاك؛ فضـاءُ الزنازيـن «بانورمـا» حيـةّ، تأخـذ الوجـع بالخيـال الى النـدم..

******

بعـد تصفيـة خلايـا الحـزب الشـيوعي العراقـي، بـرزت أمامـي مشـكلة جديـدة تمثلـت في ظهـور الحـركات السياسـية الإسـلامية الشـيعية التـي رافـق صعودهـا ونفوذهـا انتصـار الثـورة الإسـلامية في «إيـران» بقيـادة آيـة الله «الخمينـي»[1] وعودتـه إلى «طهـران» في شـباط ١٩٧٩، وتوجهـتُ إلى

---

(١) المرشـد الأعـلى للثـورة الإسـلامية في عـام ١٩٧٩، بعـد انهيـار النظـام الملـكي البهلـوي الشـاه «محمـد رضـا بهلـوي». ولـد في مدينـة «خمـين» في إيـران عـام ١٩٠٢، وتلقـى تعليمـه الدينـي في مدينـة «قـم»، وأصبـح مرجعـاً دينيـاً، ومناهضـاً للنفـوذ الغـربي. أسـس نظـام الولايـة الفقيـه، الـذي يمنـح السـلطة العليـا للمرجـع الدينـي. تـوفي الخمينـي عـام ١٩٨٩، وخلفـه آيـة اللـه «عـلي خامنئـي».

أقوى الحركات الشيعية، لأخوض معها أشرس المعارك، وكانت البداية مع آية الله «محمد باقر الصدر»، الذي كان معروفاً بأنه مرجعية حزب «الدعوة»، حيث جرى التفاوض معه أول الأمر، ولكن ذلك لم يدم طويلاً عندما أرسل إليه «الخميني» برقية يحثّه فيها على التمرد والبدء بثورته على دولة البعث..

وكم كنت انصح بالتعامل مع الأخير برويّة - قبل ان يعتلي السلطة في بلاده، وبعدها أيضاً- كونه سياسياً محنكاً أداتهُ الدين.. بالغ الذكاء قضي أكثر من ١٦ عام في العراق، وبدلاً من إزاحته نهائياً، تقرر إنهاء ضيافته وترحيله الى الكويت، لكنها لم ترحب به، وجعلته عالقاً بين حدودها، ولم يكن ذلك بالحسبان. ثم تداركت الحدث سريعاً بنفسي، وأشرفت على إعادته سالماً إلى «النجف»، قبل أن تستهدفه مخابرات الشاه. بعد ذلك رتبنا له السفر الى «فرنسا»، ومع ذلك بقيت لدى «الرفيق القائد» رؤية أخرى، ومخاوف من جانب آخر، حيث أمر بشنّ حملة منظمة لم تفّرق خلالها بين الأعضاء في الحزب وبين المتعاطفين معه، وخلال عامي ١٩٨٠ـ ١٩٨٣ تمّ التمكن من اجتثاث حزب «الدعوة»، وتصفية اغلب أعضائه، وانصاره، ومؤيديه، قبل ان تتمكن قلّة قليلة من كوادره على الهرب إلى إيران.

في مطلع عام ١٩٨٤م قال عني: «لولا رفيقنا وجهوده ومبادراته في التصدي لعملاء إيران ـ ومواجهته الشجاعة للطابور الخامس، لكان العراق في وضع آخر» وكان يوجه كلامه إلى ابن عمه «علي حسن المجيد» الذين عينه مديرا للأمن العام بعدي، وخاطبه آمراً:

- «سر على خطاه واستفد من تجربته»!

****

بقيتُ مسترسلا في غفوةٍ حتى سمعت صرير البوابة الحديديّة تُفتح بقوة، وثمة صوت صارخ آمر:

- هات المعتقل في زنزانة رقم «واحد».

بعدها بقليل فتح عليّ الحارس الباب وقال بصوت خجول:

- سيدي.. يطلبونك لغرفة التحقيق.

قلت له:

- أريد أن أقابل المدير العام.

ثم واصلتُ القول: حسناً عجّل بأخذي سوف أطلب منهم مقابلة المدير العام.. أريد أن أنهي هذه المهزلة.. خمسة أيام محتجز ولا أعرف سببا .

جـاءت الاسـتجابة لطلـب مقابلتـي مـن رئيـس الجهـاز بنفسـه «سـبعاوي» أخـو «السـيد الرئيـس» مـن الأم، وهـو أكـبر مـن أشـقائه «بـرزان»، و»وطبـان».

وجدتـه يخاطبنـي بصلافـة، وبتهديـد مبـاشر، وكأنـه يكشـف لي وجهـاً لم أره مـن قبـل:

- «الاسـتجابة وحسـب، وإلا اتبعـوا معـك السـياقات كحـال أي متهـم»؛ أن أكتـب عـن علاقـاتي مـع «الاتحـاد السـوفيتي» السـابق، وبألمانيـا الشرقيـة السـابقة، وأن ألتـزم الصمـت، الإنجـاز خـلال ثلاثـة أيـام، ثـم زودتُ بقلـم وبضعـة أوراق، وأعـادوني بخشـونة إلى الزنزانـة.

******

- الاعتراف بماذا؟

- بأنك خائن.

- احـترس فأنـت تتهـم أن كل مـن سـار عـلى الـدرب نفسـه خائـن! جهـاز المخابـرات أوجـدوه لحمايـة البلـد مـن المؤامـرات الخارجيـة وليـس لتصفيـة وحمايـة الحسـابات الشـخصية.. البلـد فيـه قانـون.. وقانـون الغـاب الـذي جعلكـم تحققـون معـي لـن يـدوم طويـلاً.. إنكـم تخرقـون حرمـة

البلـد.. البلـد ليـس مقاطعـة ملـكاً صرفـاً لعصابـة تتحكـم في مصـير البلـد فيهـا رئيـس والرئيـس يمثـل القانـون الـذي يجـب أن يحـترم.

تردد المحقق، ولكنه لم يتوقف عن الضرب.

- لا تتمادى.. اعترف؟

أجاوبه ببرود:

- أعترف بماذا.. ليس لدي ما أقوله لك؟

- لابد من إخباري بشيء.

- احذر قد يكون فخّاً وتدور الدورة عليك!

أعرفـهُ جبانـاً والجبـن أحيانـاً تـدنّ في الوعـي في حـدّ ذاتـه ونقـص تعويـضي عـن الشـجاعة، فالخـوف الغريـزي الـذي في الإنسـان يدفعـه أن يدافـع عـن نفسـه بشراسـة، يـضرب لأنـه عـلى يقـين أن قوتـه لا تعـادل قـوة مـن أمامـه، يخـاف أن تطلـق يـدي عليـه، يتأمـل لزمـن ثـم يهجـم وفي قـرارة نفسـه أنـني سـوف أخـرج مـن محنتـي وسـوف تنقلـب عليـه المعادلة. المعـادلات في التحقيـق تحتـاج إلى سـؤال حـاد يخـرق الحالـة، سـؤال متصـل بأسـئلة أخـرى، يفتـح النـار عليـه - كيـف تحـاصر السـؤال بالجـواب المُلغم. ثمـة أجوبـة تقلـب المعادلـة عـلى المحقـق، وخاصـة تحـت عدسـة الكامـيرا، والميكرفـون، أسـئلة تشـير إلى المعيـار الـذي يتعامـل بـه العقـل. الجبـن يجعله

يتـمادى أكثـر، لأنـه المتباهـي بغطـاء الـولاء. المهنيـة أن تشـك وتجنـح نحـو اليقـين، مـادام المتهـم أمامـك لا حـول ولا قـوة، أن تنتـزع منـه اعترافـه بـكلام منطقـي متسلسـل، وتجعلـه يكشـف الحلقـة المفقـودة، فالعقـل لا يمكـن الاسـتهانة بـه، الإيغـال بالتعذيـب لمـن يـصر عـلى اسـتغفال المحقـق، في حـال توفـر الدليـل المـادي القاطـع، وربـط الحلقـات الواحـدة بالأخـرى مـن أجـل ان تتوضـح الجهـة التـي جعلتـهُ يتـمادى بالخيانـة.

- لابد أن تعترف بأي شيء.

- هل هناك سؤال محدد.. اسأله؟

- أنت من يعرف جيداً.. فعليك أن تحكي لنا القصة.

- أي قصـة لا توجـد عنـدي قصـة.. القصـة مكشـوفة ولا أحد ينافسـني عـلى ولائـي لهـذا الوطن.

- الوطن دون رمز.. هل هذا ما تعنيه؟

يضربنـي وأكاد أحـسّ بارتجافـه، وهـذا الخـوف منـي جعلـه يـضرب دون أن يشـعر بـما يسـببه لي مـن إيـذاء.

اصمـتُ ولا تخـرج منـي سـوى الآه التـي تسـتجيب لـلألم. فيعـاود ضربنـي بهسـتيريا وفـق شـك في قـرارة نفسـه، ثمـة احتـمال في لحظـة مـا

وتنقلب الموازين، وسوف يدفع ثمن ما يفعله، بات يعلم أن الصمت الذي أقدمه فيه براءة، والبراءة سوف تخرجني من قبضته، وأن تماسكي تجاه ما يظهره لي من عنف هو انتصاري عليه، فالكلمة التي يريدها تخرج مني هي الكلمات التي تجعلني ضعيفا، والكلمات أنا من يعرفها، وأنا من وضع لها القوانين، كل متهم بريء حتى يقرر له الخروج من تهمته مادام يظهر احترامه للرمز، للقائد الضرورة، لعمود العائلة. يضرب بقوة يريد انتزاع حريتي، ولكني سوف أقاوم ما استطعت، أعرف أنه سوف ينهار لأنه يعلم أنها اللحظات التي بينه وبين موته.

******

البداية هي سيرة ذلك «الولد» التي بدأت من القرية في عام ١٩٣٩م.[1] «العوجة» تلك القرية التي بقيت نائمة على الضفاف وهي تحتضن أسرار النهر، شبه الجزيرة التي يحوطها الماء من ثلاث جهات، والتي لم يختف فيها سر أو خبر. قال الرواة إن البداية كانت بعدما توفي أبوه وقد سبقه أخوه الأصغر بتفاقم الصرع، بقيَ وحيداً لأمه،

(١) تم تغير سنة ميلاده الى ٢٨ نيسان ١٩٣٧م. حسب طلبه بعد زواجه من ابنة خاله المولودة في ١ تموز ١٩٣٧م

ولم تتركـه يكـبر حتـى تزوجـت مـن رجـل ثـان، وفـر لهـا غرفـة وحيـدة في بسـتان يـزرع فيـه محاصيـل كل موسـم بموسـمه. وسرعـان مـا انجبـت حتـى ضـاق عليهـا المـكان، ولم يعـد لابنهـا مـن زوجهـا الأول مـكان، وبـات عليهـا أن تبعـده عـن إيـذاء زوجهـا الثـاني لابنهـا مـن الرجـل الـذي مـات عنهـا. المـرأة أنجبـت مـن بعلهـا الثـاني وصـار للولـد أخـوة غـير أشـقاء ثلاثـة أولاد وبنتـين، كلهـم مفضلـين عنـه عنـد أبيهـم، الـذي أصبـح لـه أب ثـان، كاره أحداهمـا الآخـر، تعـود زوج الام أن يطـرده، وتعـود أن يواجـه قسـوة الحيـاة، ويتحمّـل كل ظـرف قاهـر.

ذاكـرة النـاس القريبـة لا تنطفـئ أبـداً، بقيـت تحكـي عـن تفاصيـل حدثـت ومـا خفـي تحـت جنـح الظـلام، الحكايـات عـن الأفـراد الذيـن تسـلموا السـلطة، لم تسـكت عـن حكيهـا أبـداً، سرّا وعلنـا، يحكـون لي بتـودد، كنـت أسـمع كل الحكايـات بمحبـة، وبحسـن نيّـة، ولا أعتنـي بتفاصيـل الغايـات، ربـما تشـكل خطـراً عـلى مـن يحكـي لي منهـا، كنـت أسـمع وحسـب دون أن أبـدي أي تفاعـل.

عـن «المسـدس» المسروق الـذي لم يفـارق حزامـه منـذ الرابعـة عـشرة مـن عمـره، مسـدس محشـو.. مسـلوب مـن شـيوعي مغـدور، قريـب لهـم، تلـك البدايـة بتحريـض الخـال، وذلـك المسـدس المهيـب أوصلـه

إلى العـرش، بمعيّـة أخوتـه غـير الأشـقاء، حيـث تظافـرت تلـك الأيـدي، لشـق الطريـق، خطـوة بخطـوة. ترأسـهم، ورسـم لهـم الخطـط الغامضـة، وبدورهـم نفـذوا ورسـموا خططـاً أخـرى تصـب في رغبتـه، ثـم ترأسـوا أبنـاء عمومتهـم، ورسـموا خططـاً أخـرى وأخـرى تصـب في رغبتـه. وبقيـت الدائـرة تتسـع بالمكتسـبات، لم يبخـل عـلى أحـد بـكل مـال يحصـل عليـه، كان سـخاؤه عليهـم يدفعهـم إلى المبالغـة في تصفيـة الخصـوم. وكان يمـضي وحيـدا ينتخـب بعنايـة مـن يريـد إزاحتـه، وكانـت الشـجاعة دافعـاً في تبريـر الفعـل، وتنفـس الصعـداء بعـد كل خصـم، كأنـما كل خصـم وجـد ليجثـم عـلى أنفـه، يخنقـه، لا يدعـه يتنفـس، ولابـد مـن أن يـزاح. صـارت عصابـة الأخـوة تنـوب عنـه في التقديـر، والتأثـير، وتنفـذ لـه مـا يريـد إزاحتـه بسريـة تامـة. تواصلـت تحـت جنـح الظـلام، وخلـف الأكمـة كانـت التصفيـات تجـري بعجالـة، الأهـم الإزاحـة، لتكـون الطـرق أكثـر وضوحـا، باتـوا ينفـذون لـه حتـى ايماءاتـه، و «المسـدس» حليفهـم الـذي لا يتأخـر عـن كونـه الحكـم سـيد السـاحة. كان غـير هيّـاب مـن أيـة عاقبـة، ولا يـرفُّ لـه جفـن، يفعـل فعلـه بـأسرع مـا يسـتطيع، ليعـود إلى وكـره بـين الرفـاق، ويخـرج سـيجارة يدخنهـا بـين ضحـكات الأصدقـاء، وكأنـه الشـخص المتفـرج وليـس الفاعـل، فالسياسـة تتطلـب حضـوره، مـع مـن يسـتند عليـه. وفي الوقـت نفسـه لا يتوانـى بـكل شـهامة عـن مسـاعدة أي

صديـق، فالصديـق لوقـت الضيـق، وعندمـا يزيـل ضائقـة صديـق يُكبّلـه بالجميـل، ويكـون الجميـل درجـة مـن درجـات الصعـود، لا يهتـم بالـدم المـراق، بقـدر مـا يعتـبره عمـلاً يؤديـه بـدأب وإخـلاص.

******

قبـل أكثـر مـن شـهرين وصـل بيتـي طـرد بريـدي، تسـلمه في غيـابي ولـدي البكـر «عـلي»، ومـن حسـن الحـظ، أنـه لم يجـرؤ عـلى فتحـه، ليـس لاحـترام خصوصيتـي، وإنـما راوده الشـك حولـه، لأنـه غلـف بعنايـة وتـم تسـليمه في فـترة غيـابي عـن البيـت. عندمـا رأيتـه ارتبـتُ منـه، واتصلـت بالسـيد «فـلان» الـذي بقـي في وظيفتـه شـعبة البريـد لكـي يتـم فحـص الطـرد قبـل فتحـه، ولم يتعـذر الرجـل، بـل عـزم عـلى أن يخدمنـي بنفسـه، ويتابـع إجـراءات الفحـص بـأسرع مـا يمكـن، ولمـا جـاءني بعـد يـوم، اتصـل بي وقـال: «سـيدي اللـواء بخصـوص الطـرد البريـدي المرسـل شـعبة المتفجـرات أكـدت أنـه الطـرد المرسـل اليـك، آمـن، وبعـد فتحـه يحـوي على ألبـوم صـور مـن اللائـق أن أسـلمك إيـاه بنفسـي». قلـت لـه: «أهلاً وسـهلاً بـك في كل وقـت، فأنـت مـن أهـل الـدار»، فالرجـل عمـل معـي بحـرص واسـتحق منـي كل تقديـر. ثـم جـاء لي بـه، ووجـدت فيـه ألبـوم صـور فاضحـة جـداً، محورهـا أنـا في صحبـة نسـاء، وكأني في حفلـة جنـس ماجنـة،

دققت في الصور وجدتها مفبركة، ليست صوري، ولكن من يراها للمرة الأولى يظن بأني ذلك الماجن بين تلك النسوة الفاجرات، لم أشأ أن أدع الموضوع يمضي، فطلبت من زوجتي بعد تفرغها أن توافيني إلى غرفة المكتبة، لأمر عاجل، مقررا شرح الموضوع لها لأن الطرد البريدي المرسل من مجهول فعلا كان «قنبلة»، وقبل أن أريها الصور، أحضرت بجانبه ألبوم صور آخر فيه لقطات كانت في مناسبات رسمية. ورحت أشرح لها نيّة مرسل هذه الصور المركبة، والتي لولا تنبهي إليها لكانت أحدثت سوء تفاهم عائلي بيني وبينها، حيث لم يبق لي في هذه الدنيا صديق أو ونيس غيرها، وخاصة بعد أن أصبحت بلا منصب بات الأصدقاء من الصعب اللقاء بأحدهم، وأخذت أشرح لها الكيفية التي تركبت بها الصور «صوري» بين صور لنساء لا أعرفهن، عملت بيد مصور متقن لفن تزوير الصور، ولكني أخذت أقارن لها بنسبة القياسات بين وجهي في الصور الأصلية ونسبة القياسات إلى نسبة الصور المفبركة، وبشق الأنفس باتت مقتنعة، حتى تمت براءتي من خيانتها.

لم أستطع أن أطيق صبراً فحملت الألبومين وطلبت مقابلة «السيد الرئيس»، نكاية بمن أرسل لي تلك «القنبلة»، لأني أردت حماية نفسي، ولأثبت للمرسل بأن «السيد الرئيس» مصدر قوتي، وحتما سيوجه

بمعرفة الفاعل، ويوقف من يستهدفني في عقر داري. فالتخريب بين اثنين هو اغتيال سياسي بقصد التدمير.

بعد أيام جاءني أحد الشيوخ، وينقل لي تحيات «السيد الرئيس» الحارة، ويخبرني أنه تقرر جعلي سفيرا في أية دولة أختارها.. كما وأنه حمل إليّ سيارة «مرسيدس» كاملة المواصفات كهدية ترضية منه. ولكنني وقفت أمام الشيخ وقلت له:

-»هذه التصرفات لا تليق بمن مثلي ومن السهولة اكتشاف الفاعل، مما يجعلني لا أقبل بأية تسوية، كون الفاعل من الدائرة القريبة جدا، وسوف يبقى حراً يتصيّد في الماء العكر، ويفتعل ضدي المزيد من المكائد مستقبلا».

أضفت «قل له: أرفض العرض ولا أريد سوى وقف الدسيسة وحسب». انتفض الشيخ وغادر قائلاً: «كأنك لا تعرف طبيعة السيد الرئيس»!

لم أقبل بالمكرمة الكيديّة التي يكيد بها للفاعل حتى يزيد الحاقد عليّ حقده. ودائما الحقد رفيق الغدر، حياتي بلا سلام، ولا طمأنينة. أريد أن أحيا حياة هانئة، بعيدة عن الحقد والكيد.

«فـرّق تسـدّ» عبـارة بليغـة، نفذّهـا بحذافيرهـا بحروفهـا المجتمعـة، وجعـل كل مـن الدائـرة المحيطـة بـه ضعيفـة، وأن أي تـآكل في تلـك الحلقـة قـد يخلـف ثغـرة، فدائـماً يسـد الثغـرة بثغـرة أخـرى، ولكنهـا في مـكان آخر، يحـرص بـذكاء عـلى إيقـاد ذلـك الحقـد بـين بعضهـم البعـض، ليـشي لـه البعـض بالبعـض، البعـض مقابـل البعـض، وتبقـى قوتـه فـوق قوتهـم. ذكاء خـارق يعـرف أيـن يضـع الفتيـل لأجـل أن يضعـف لـه الطرفـان بمـرور الوقـت. جعـل الحقـد بينهـم ينمـو ليكـون لهـم وعليهـم الـضرورة، والسـيد الـذي لا ينافـس.

******

مرورنـا في هـذا العـالم عابـر وقصـير جـدًا، لدرجـة أن الـشيء الوحيـد الـذي يهدئنـي هـو الوعـي بـأن عالمـاً مختلفـاً ينتظرنـا حيـث لـن يكـون هناك المزيـد مـن الـشر؛ لدرجـة أننـي أسـتطيع أن أكـون شـبه نفـسي التـي كنـت أتخيلهـا.

******

كنـت أتمنـى الحصـول على مذكـرات «سـيمون دي بفـوار» التـي صدرت في بـيروت بعنـوان «وانتهـى كل شيء». حيـث لم أسـمع بالكتـاب إلّا بعـد أن اعتزلـت مـن يأتنـي بالكتـب، وصرت بعيـداً عمـن يـأتي إليّ بهـا. أتعامـل

مـع الكتـب كأرواح حيّـة، رغـم أن «الماركسـية» قـد علمتنـي أن أبحـث عـن وجـودي في المـكان المأهـول، والارواح ليـس لهـا وجـود، مفـردة حيّـة وحسـب، الأرواح مفـردة للاسـتخدام، وليسـت لهـا ثبـات وجـودي. باتـت تعطينـي ‌ساـعة أشـاء- أسرارُ مـا سـيأتي مـن الأيـام، المعرفـةُ سـبقٌ يمكنـه أن يرفـع مـن إنسـانيتك كـما يقـول «نيتشـه». حـرارة الأفـكار، وتداخلهـا فكـرة تـؤدي إلى الأخـرى هـي الـروح الحيّـة التـي تحـرك جثـة مـن الـورق، وتجعلهـا سـحراً يبعـث الأمـل في القـارئ، القـراءة مثـل تحضـير أرواح، لتخـبرك بـما فـات مـن الزمـن المكتـوب.. واصلتنـي اللغـة الإنكليزيـة التـي تعلمتهـا في المدرسـة، باللغـة الروسـية، واسـتطعت بواسـطتها النفـوذ إلى المعـاني بسـهولة. اللغـة العربيـة معقـدة، امتلكـت نواصينـا وجعلتنـا نفكـر بطريقـة ذهنيـة واحـدة في بنـاء الجملـة، الفعـل قبـل الاسـم، وليـس كـما في لغـات الأرض الاسـم بعـده الفعـل.. طريقـة التفكـير عَقَـدَتْ علينـا نحـن العـرب أن نخـرج مـن نـير لغتنـا إلى اللغـات الأخـرى، فالـذي يتعلـم لغـة غـير العربيـة يسـهل عليـه تعلـم لغـة أخـرى، الأهـم أنـه يخـرج مـن قالـب الترتيـب الذهنـي للجملـة، وفي ذلـك حسـنة. اللغـة الإنكليزيـة الأساسـية التـي تعلمناهـا أهلتنـي بصـورة جيـدة إلى تعلـم اللغـة الروسـية، ليسـت بالإجـادة التامـة، ولكـن بحـدود التفاهـم الكاملـة، هنـاك قواعـد وأسرار في اللغـة الروسـية هـي التـي تتحكـم في اللهجـات ومفاصـل نطـق الحـروف،

حـري بنـا اسـتيعاب كلمـة العقـل، وتحريـره مـن ربـق عبوديـة الجهـل.

حيـث قـراءة المذكـرات ليسـت بمسـتوى كتابـة المذكـرات، القـراءة تعنـي تنظيـف الحـبر الأسـود عـن الأسـطر البيـض، أمـا كتابـة المذكـرات تعنـي إخـراج الحـبر الأسـود، وسـكبه فـوق الـورق الأبيـض. المذكـرات حركـة التاريـخ الحقيقيـة، وليـس المـادة المـراد لهـا أن تُذكـر، التاريـخ شـاهد وشـهود، وثمـة شـهود يختبـؤون وراء الصمـت، ولكنهـم ينتهـزون فرصـة غيـاب اليـد التـي تكمـم العقـل والأفـواه، وكتابـة المذكـرات بحاجـة إلى جـدل معـرفي لتقديـم التاريـخ بصورتـه المقنعـة، ودائـماً الحقيقـة هـي صـورة التاريــخ المقنعــة، فــلا توازنــات تحــدث عنــد الحجــب، أو الإضافــة، او التلفيـق، التاريـخ مـادة علميـة تعمـل عـلى التسلسـل.

هكـذا قبـل عـام بـدأت كتابـة مذكـرات مـن بعـد أن اعتزلـت السياسـة والسياسـيين، أردت أن أتقـدم خطـوة أخـرى، فالمجـد للكتابـة، والكتابـة تاريخهـا مجـد، نويـت الاعـتراف لأغتسـل مـن الأدران، الحقيقـة تنـزع عـن كاهـلي كل مـا علـق بي، مـن بعـد أن غاصـت القـدم في الوحـل. أكتفـي بقـدح شـاي، وبضعـة أوراق بيـض أفضفـض عليهـا مـا يـدور في خلـدي، أكتـب عـن وجـه العـراق الـذي اسـتقبلني كائنـاً عـلى أرضـه، واختـارني مـن زقـاق «الحـارة» في قريـة نائيـة لم يكـن التاريـخ يذكرهـا بقـدر مـا تحكـم

البعـض مـن أبنائهـا وتسـيدوا عـلى البـلاد والعبـاد.

******

رفعـوا عـن الوجـوه أقنعتهـا، ثـم رفعـوا عـن رأسي الكيـس بعـد أن أيقنـوا بـأني أعرفهـم جيـداً، أعـرف نـبرات أصواتهـم، أعـرف كذلـك طبيعة أسـئلتهم قبـل ان تُسـأل. ولم يكـن الكيـس الأسـود الـذي ألبسـوني إيـاه عائقـا بينـي وبينهـم. كأني كنـت أعـريّ نفاقهـم بأسـمائهم، وأواجـه ذلـك التخفـي بـكلّ اسـتعداد.

أتذكـر أني قـرأت ذات مـرة روايـة كتبهـا الرفيـق عضـو القيـادة القوميـة المسـتقيل «عبـد الرحمـن منيـف».. اسـمها «شرق المتوسـط»، كانـت أجواؤهـا تـدور حـول التعذيـب في «سـجون» حـوض المتوسـط، لم يكـن ببـالي أني سـوف أتعـرض لعقـاب أشـدّ منـه، الحـال مـن بعضـه، والظـالم واحـد.

الظـالم هـو المهيمـن عـلى الثـروة، رسـم لهـم طريقـة تفكـير وزرعهـا في دواخلهـم، بحجـة رفعـة الاسـم ومـن ثـم العائلـة، والفخـذ، والعشـيرة، والقريـة. وهكـذا حلقـات المـاء تكـبر وتتسـع حتـى تبتلـع مـا حولهـا ولم أك أفهـم كيـف يـدار العـالم، ولكنـي تيقنـت تدريجيـاً أن المؤامـرات التي تسـمى بالمؤامـرات ابتدعهـا «الـروس» بغيـة التغلـب عـلى الغـرب وسـبقه بخطـوة،

مناورات الحرب الباردة التي ابتدأت بنهاية الحرب العالمية الثانية. ثمة قوتان القوة الأولى تنادي بالأيدلوجية والثاني تنادي بالتكنولوجيا، رغم أن الروس بواسطة جواسيسهم استطاعوا سرقة معادلة صناعة القنبلة النووية التي اخترعها الامريكان. وبعد سرقتها بات الأمريكان مكشوفي المؤخرات أمام الروس، فتمّ تعزيز صناعة الجواسيس، أولئك المخترِقون الذين أنقذوا بلدانهم من الضياع. وفقًا للبيانات العامة لمحاربي المخابرات العسكرية السوفيتية، كانت وحدة المخابرات العسكرية تابعة دائمًا لـ لجنة أمن الدولة «الكي جي بي». تم تأسيسها بأمر «جوزيف ستالين»[1] بتاريخ ١٦ شباط ١٩٤٢.

بقوا يتعاملون مع الأجهزة الاستخباراتية الأخرى، بأشراف دقيق وامتدت منظماتهم المنضبطة الى خارج حدود اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية. حيث قاموا بتجنيد جواسيس، سواء كانوا «قانونيين» (أي العاملين في السفارات السوفيتية) أو «غير القانونيين»، في جميع أنحاء العالم. وبذلك تفوق السوفييت محدودي الثروة على العالم، بثروتهم الاستخبارية، والتمكن في التغلغل في هيكلية الحكومات لمنافسة

(١) ولد في ١٨ كانون الأول ١٨٧٨م وتسلسله القائد الثاني للاتحاد السوفييتي، الذي حكم بلاده بالنار والحديد من منتصف عشرينيات القرن العشرين حتى وفاته عام ١٩٥٣ وهو من إثنية جورجية، وشغل منصب السكرتير العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي من ١٩٢٢ حتى ١٩٥٢، تولى منصب رئيس مجلس الدولة من ١٩٤١ حتى مماته ١٩٥٣.

الإنكليز على مستعمراتها التي لا تغيب عنها الشمس. باتت معظم دول الشرق المتوسط محتلة عقائديا ومعلوماتيا وقياديا من روسيا العظمى حتى بعد انهيار الاتحاد السوفييتي في كانون الأول ١٩٩١م، استمرت مديرية الوحدة الخارجية كجزء مهم من أجهزة المخابرات الروسية، ولم يتم تفكيكها- على عكس- «الكي جي بي». كانت مخابرات عسكرية صارمة ومعروفة باستقلالها الشرس عن مديرية «المخابرات الداخلية»..

ازدادت شراسة عندما حلت «الكي جي بي» بعد مساهمتها في انقلاب فاشل في عام ١٩٩١ ضد الرئيس السوفيتي آنذاك «ميخائيل غورباتشوف»[1]. وتم تقسيمها منذ ذلك الحين إلى دائرة المخابرات الأجنبية (SVR) ودائرة الأمن الفيدرالية (FSB). جعلت من مديرياتها دوائر مستقلة بعملها، ولكنها مرتبطة برأس النظام، ليتم تحويلها إلى أداة ضاربة ساعة الحاجة، وبقيت كل منها متنفذة على أغلب رؤساء البلدان المزروعين كوكلاء سريين في بلدانهم، وأنشأ لها مقر فخم في مكان غير معلن بمثابة «طاولة عمليات» على مساحة ٧٠ ألف متر

(١) لد غورباتشوف عام ١٩٣١ في قرية «بريفولنوي»، التابعة لمقاطعة «ستافروبول كراي»، التي أصبحت جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفياتية، إحدى الجمهوريات المكونة للاتحاد السوفيتي.

مربـع بكلفـة ٥,٩ مليـار روبـل.

******

حالــة الرعــب التــي تكتنــف الدائــرة القريبــة مــن «الرمــز»، ســببها التنافـس عـلى إظهـار الـولاء، أحدهـم عـلى حسـاب الآخـر، فالخطـر الحقيقـي يكمـن في طبيعـة الرمـز الـذي لا يسـتطيع التنفـس إلا بالـولاء.

حلقــات تنافــس بعضهــا البعــض بالمزايــدة عــلى الــولاء ولا تبــالي بالنـار التـي تبتلـع الأقـل منهـا، والأبعـد قرابـة، واحـدة تطحـن الأخـرى، الاحتـكاك المبـاشر لم يجعلهـا أن تهنـأ وتنـام، حيـث الواحـدة تـأكل الأخرى، دائـرة الأخـوة غـير الأشـقاء، مـن جهـة، ودائـرة الأعـمام، مـن جهـة. قبـل أن تصعــد طبقــة الأبنــاء، فــكل منهــم بطبيعــة جديــدة، وقبلهــا طبقــة الأخـوال. إضافـة إلى طبقـة الحمايـة التـي أثبتـت ولاءهـا والتـي تقدمـه إلى حـدّ التفـاني.

******

وضعــتُ نظامــا داخليــا للعمــل، وكان ذلــك بمثابــة المشــط والمقــص لتشـذيب العواطـف والمحسـوبيات التـي تجثـم فـوق صـدر المنتسـب، أو المؤتمــن.

المتنسبون سواسية، والأهداف سواسية، المتهم بريء حتى تثبت إدانته، والبريء من حقه –حسب القانون- أن ينال ممن ظلمه. كتبتُ ذلك النظام، وطلبت من «الرئيس» أن يقرر له لجنة من أبرز الرجال المتنفذين في الدولة، وتمت المصادقة عليه، إذ عملت ذلك لحماية كل شخص، وكأنما سننت للجهاز الابتعاد عن أسلوب الإيقاع بالأشخاص بحجة الخيانة وخاصة الذين يقفون عقبة في مصالح الساسة الكبار، التي باتت مصالحهم تتسع وباتوا يشكلون نظاماً داخل النظام، ودولة داخل الدولة تحت ظل الولاء، وباسمه.

كنت أُعيد تنظيم الأمور لمسيرة دولة لا يحكمها إلا المتعلمون، دولة مُتحضرة. البناء بالولاء المطلق لقانون الدولة، وليس لقانون الشخص، فالشخص غالبا ما يزاح، وتبقى الدولة ثابتة وراسخة أكثر من نظام العائلة.

******

العراقي بقيَ مغلوباً على أمره من جراء الصراع الدموي بين الشيوعيين والبعثيين والقوميين!

خاصة عندما صدر بيان رقم ١٣ في «٩ شباط عام «١٩٦٣، الذي يدعو فيه القوميون إلى إبادة الشيوعيين عن بكرة أبيهم، والذي صاغه

كل مـن «عبـد السـلام عـارف»، «أحمـد حسـن البكـر»، «صالـح مهـدي عـماش»..

سـبقهم «سـلام عـادل»[1] عندمـا أطلـق بيانـه المـدوي في شـوارع بغـداد ظهـيرة ٨ شـباط «إلى السـلاح لسـحق المؤامـرة الاسـتعمارية الرجعيـة» دعـوة صريحـة لمقاومـة الانقلابيـين، والحفـاظ عـلى مكتسـبات الثـورة والجمهوريـة الفتيّـة، مما زعـزع الثقـة والبلبلـة بـين صفـوف الانقلابيـين، وكان الخـوف مـن سـيطرة الشـيوعيين عـلى الوضـع، الـذي أصبـح متأزمـاً، وغـير محسـوم كـرد فعـل عـلى الموقـف، ونجـح الشـيوعيون في اذكاء مذابـح في عـدة مناطـق مـن بغـداد، الكاظميـة، الشـاكرية، بـاب الشـيخ.

وبواسـطة بيـان رقـم ١٣، شـنّ البعثيـون والقوميـون حملـة كبـيرة مشـتركة عـلى أوكار قـادة الحـزب الشـيوعي العراقـي مدعومـة بفتـاوي مـن رجـال الديـن.

في يـوم ١٦ شـباط ألقـيَ القبـض عـلى الـكادر الشـيوعي «حمـدي أيوب»

(١) الرفيـق «سـلام عـادل» هـو اسـم يطلـق عـلى السـياسي والشـاعر والرسـام العراقـي «حسـين أحمـد الـرضي»، الـذي كان سـكرتيراً عامـاً للحـزب الشـيوعي العراقـي في الفـترة مـا بـين عامـي ١٩٥٦ و١٩٦٣. كان سـلام عـادل مـن أبـرز القـادة الشـيوعيين في العـراق والعـالم العـربي، ولعـب دوراً مهـماً في دعـم ثـورة ١٤ تمـوز ١٩٥٨ التـي أطاحـت بالنظـام الملـكي وأسـس الجمهوريـة العراقيـة بقيـادة «عبـد الكريـم قاسـم». وكان مؤلفـاً لعـدة كتـب ومقـالات سياسـية وفكريـة وثقافيـة، ورسـاماً موهوبـاً وشـاعراً ملتزمـاً.

وتعـرض إلى تعذيـب شـديد حتـى أدلى باعترافـات أدت الى إلقـاء القبـض علـى عضـو المكتـب السياسي «هـادي الأعظمـي» مسـؤول تنظيـمات بغـداد وبطـل السـجون في فـترة حكـم النظـام الملكـي، والـذي يعـده الشـيوعيون مـن أكثرهـم صلابـة وقـوة في الحـزب.

منــذ اللحظـة الأولى التـي ألقـيَ القبـض عـرض تعاونـه حيـث تـم التحفـظ عليـه – كنـز الاسرار- مـع عائلتـه في بيـت مـع حمايـة خاصـة في «الوزيريـة»، حيـث تجـاوب مـع «عـلي صالـح السـعدي» وقـدم لـه المعلومـات المتوافـرة لديـه عـن الأوكار البـارزة التـي تتواجـد فيهـا قيـادات الحـزب الشـيوعي، وأخـذ يؤكـد «أن الحـزب الشـيوعي العراقـي أصبـح عائقـاً أمـام حركـة التحـرر في العـراق»، وكشـف أربعـة أوكار يتنقـل بينهـا القيـادي «سـلام عـادل»، وكانـت تلـك الصفقـة مـن بـين أقـوى الضربـات القاصمـة. إذ تـم إلقـاء القبـض عليـه في بيـت سري يـوم ١٩ شـباط، وكان معـه ابنـه الصغـير «عـلي» الـذي كان برعايـة إحـدى الرفيقات لغيـاب زوجتـه «ثمينـة ناجـي يوسـف» التـي كانـت في «موسـكو» لحضـور مؤتمـر نسـائي هنـاك، ومـن حسـن الحـظ نجـي ابنـه مـن المـوت لعـدم فطنـة الانقلابيـين لـه، الذيـن كانـوا في لجّـة نشـوة القبـض عـلى أهـم رجـل مطلـوب لهـم، ثـم نقلـه عـلى عجـل وبسريـة تامـة إلى قبـو التحقيـق، حتـى تـوفي يـوم ٢٣ شـباط عـلى يـد الرفيـق المحقـق «محسـن الشـيخ راضي»،

والـذي ذكـر تفاصيـل التحقيـق في مذكراتـه -كنـت بعثيـا- أطلعـت عليهـا بعـد أن تسربـت الينـا مـن منفـاه: «ذهبنـا أنـا و»الرفيـق حـازم جـواد»[1] إلى قـصر النهايـة، فوجـدت «سـلام عـادل» مربوطـاً عـلى كـرسي في أحـد الممـرات، سـألناه: -»لمـاذا لم تتخـذوا إجـراءات الحـذر واليقظـة ولم تعممـوا توجيهـات إلى تنظيماتكـم العسـكرية بعـد كشـفكم محاولتنـا الانقلابيـة.. قبـل يومـين مـن وقوعهـا»؟، فـرد عليـه:

- «ليست المرة الأولى التي تصلنا مثل تلك المعلومات؟»

قبـل يـوم مـن وقـوع الانقـلاب اخبرتنـا ذلـك الرفيقـة «فلانـة» مـن أهـالي منطقـة «المأمـون» وأثنـاء لقائهـا مـع عشـيقها الرفيـق العقيـد «فـلان» المحسـوب عـلى مجموعـة «صالـح مهـدي عـماش»[2] وفي غمـرة ليلـة حمـراء

(١) «حـازم جـواد» هـو سـياسي عراقـي وأحـد قيـادات حـزب البعـث في العـراق. ولـد في الناصريـة في مايـو ١٩٣٦ وهـو ابـن اخـت فـؤاد الـركابي، مؤسـس فـرع البعـث في العـراق. شـارك في حركـة ٨ فبرايـر ١٩٦٣ التـي أطاحـت بعبـد الكريـم قاسـم وعيـن وزيـرا للداخليـة ووزيـرا للدولـة لشـؤون رئاسـة الجمهوريـة. كان يمثـل الجنـاح المعتـدل فـي الحـزب وهـو الـذي استطاع نفـى خصمـه «علـي صالـح السـعدي» الـذي كان يمثـل الجنـاح المتشـدد. رافـق عبـد السـلام عـارف فـي زيـارة إلـى مصـر للقـاء جمـال عبـد الناصـر وبحـث الوحـدة العربيـة. هاجـر إلـى بريطانيـا وأصـدر مذكراتـه عـن تاريـخ البعـث.

(٢) شـغل منصـب وزيـر الدفـاع في عـام ١٩٦٣م، ثـم أقـصي مـن منصبـهِ بعـد عـدة أشـهر ونفـي إلى القاهـرة، أختـير وزيـراً للداخليـة عقـب ثـورة ١٧ تمـوز ١٩٦٨، وشـغل منصـب وزيـر الداخليـة في عـام ١٩٦٨م، وعـين نائبًـا لرئيـس الـوزراء إضافـة إلى منصبـهِ وزيـراً للداخليـة مـن عـام ١٩٦٨ لغايـة ١٩٧٠م. ثـم عـين نائبـاً لرئيـس الجمهوريـة للفـترة مـن عـام ١٩٧٠ لغايـة ١٩٧٠. وبعدهـا

باح لها بتفاصيل المحاولة الانقلابية ضد «الزعيم قاسم»، وصل الخبر إلى أحد اعضاء اللجنة المركزية وبدوره لم يأخذ به على محمل الجد.

****

وإن ما نقل عن «علي صالح السعدي»[1] جئنا بقطار أمريكي، خرج إلى الاعلام وقال يكذبه «ان الكلام لم يصدر عنه وليس صحيحا وان البعثيين في انقلاب يوم ٨ شباط ١٩٦٣م، هم أساس البلاء».

****

في يوم ٩ شباط نفذ حكم الإعدام بحق الزعيم «عبد الكريم قاسم» ومعه «طه الشيخ أحمد» [2] و»فاضل المهداوي» في مبنى دار

استبعد صالح مهدي عماش بمؤامرة وجرد من جميع مناصبهِ السابقة وعين سفيراً في مركز وزارة الخارجية في عام ١٩٧١ لغاية ١٩٧١، ونقل من باريس إلى فنلندا كسفير في أواخر شهر آب ١٩٧٥م، حتى وفاته في عام ١٩٨٥.

(١)«علي صالح السعدي» أحد أشهر الشخصيات الأولى لحزب البعث العربي الاشتراكي في العراق. ولد في قضاء «الخالص» في عام ١٩٢٨م، وتخرج من كلية التجارة والاقتصاد في جامعة بغداد في عام ١٩٥٥م. كان يمثل التيار المتشدد داخل حزب البعث، وشارك في تنظيم الانقلاب العسكري الذي أطاح بنظام «عبد الكريم قاسم» في عام ١٩٦٣م. تولى منصب نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الداخلية لفترة قصيرة، وقاد حملة قمع ضد الشيوعيين والمعارضين. انشق عن الحزب البعثي في نفس العام، وتسبب في أزمة سياسية أدت إلى إسقاط الحكومة البعثية بواسطة الرئيس «عبد السلام عارف». تم نفيه إلى «إسبانيا» مع مجموعة من أنصاره، وفُصل من عضوية الحزب. حتى توفي في لندن في عام ١٩٧٧م

(٢) العميد طه الشيخ أحمد (١٩١٧- ١٩٦٣) ضابط عراقي سابق في الجيش العراقي

الإذاعة في الصالحية بقسم غرفة الموسيقى بعد أن استسلم للانقلابيين رغم محاولاته الحثيثة للنقاش بجدية حول محاكمته، لكن ذلك لم يقنع قادة الانقلاب، بمنحة أية فرصة للعيش، وتم ذلك بإشارة من «الرئيس البكر» وشاركه الضباط الذين معه.

****

كنت أعرف جيداً الغاية من طلبهم؛ أن اكتب وثيقة تدينني، تثبت تورطي، وكتبت عن طبيعة عملي التي كانت تتطلب اللقاء بشخصيات عالمية، وجميعها مسجلة من قبل أجهزتنا وبصحبتي مجموعة طيبة من خيرة المنتسبين. واحرص على توثيقه حتى يطلع عليه «السيد الرئيس» بنفسه، ولدي أرشيف جميع اللقاءات مع أي جانب كنا نجتمع به.

فعلام يبالغون في وضع عدد ملاقط الصوت والكاميرات وكأنهم يعدون اللحظات التي أتنفس فيها. ويطلبون مني كتابة اعتراف عن علاقتي بالجهات الخارجية، وأنا اللاعب الخبير بمثل هكذا طلب، يريدون الحصول على دليل تسقيط يدينني.

من محافظة ميسان عمل مسؤولًا للخطط العسكرية، وأُعدم في حركة ٨ شباط ١٩٦٣. حياته، درس الهندسة العسكرية في إنجلترا ثم درس الحقوق، ومن بين أبرز العسكريين في حكومة الزعيم «عبد الكريم قاسم».

لـن أكـون في خـبر المقتولـين الذيـن أدانـوا أنفسـهم. سـبق لي أن جعلـت لـكل محقـق سـياقات لا يتجاوزهـا الا بوجـود دليـل اثبـات عـلى المتهـم.

صرتُ اكتـب لهـم عـن طبيعـة جهـاز المخابـرات الجهـة التـي ليسـت ليّنـة، والطيّعـة كـما يظنهـا البعـض، فالذيـن بالغـوا في إظهـار الـولاء الزائـف، وتصـدروا الخـط الأول مـن السـلطة، باتـوا وكأنهـم أصحـاب قـرار. يزيحـون كل مـن لم يتوافـق مـع مزاجهـم، حيـث واجهـوا المهنيـة التـي لم تكـن بوابـة ابتـلاع، وآلـة سـحق وتسـقيط، ولم أكـن أسـمح يومـاً باسـتخدامها في ابتـلاع مـن يقـف في طريقهـم. المخابـرات، جهـاز مناعـة يتوجـه نحـو مـكان الخطـر قبـل وقوعـه ويحمـي الخطـر المحـدق بالوطنيـين. ولا يمكـن اسـتغلاله للإيقـاع بالخصـوم السياسـيين، وأعلـم علـم اليقـين أن الخطـر محـدق بشرفـاء هـذا الوطـن، ومسـتقبله.

****

معظـم الضبـاط الصغـار الذيـن كانـوا مدينـين لي بحسـن المعاملـة كانـوا يتوافـدون سرّا لـرد الجميـل، يدخلـون إليّ الطعـام الجيـد، ويسـمحون لي بالاسـتحمام، ويقدمـون لي السـجائر الجيـدة. كانـوا عـلى يقـين بـأني بـريء، وأن القضيـة التـي أنـا مقحـم بهـا عابـرة، سـوف تنتهـي مادامـت مدبـرة بكيْـد.

****

كنت مقرراً الانزواء والنأي بالنفس عن الأجواء المشحونة بالمكائد.. بعيداً عن المناصب، حيث باتت تهمة الخيانة قريبة من الجميع وتتهمهم، فالولاء المطلق في السابق بات يعدّ تمهيداً لخيانة مبيّتة، فلا يشفع التفاني السابق، وحتى اللاحق مهما كان له من رصيد. نار تسعر وتمور، بين المفاصل تريد أن تأكل كل قريب، وتبدل القديم بالجديد، حتى يبقى رأس السلطة متجددا، وباتت الدائرة تدور في أقصى سرعة، دون رحمة، تريد ضحية، لتؤخر عن الآخرين الدور، الكل يدفع بتلك السرعة بأقصى ما يستطيع. وما أن تقع الضحية المرجوة يتنفسون الصعداء؛ كأنما الفريسة التي أمام الأسد تؤخره عليهم، إلى حين.

بدأتْ بدفع من «سبعاوي» الذي لم يكن في يوم ما شهماً، والذي سوف يسهل لنفسه أولا، وللجميع ثانيا أمر الضحية لتكون بين مخالب الوحش، و»سبعاوي» الذي يكن كراهية شديدة للجميع.. قد جاءت فرصته لتسوية حسابه، باختراع التهمة:

- «إنك معارض ومتذمر، وتنقد أداء القيادة سرّاً وعلناً»..

ثم انتقلت التهمة إلى مرحلة التنكيل باعتقال كل من كان يرتبط

معــي بصداقــة..

كنــت افــترض؛ لــو تركــز بحثهــم بــشرف ومهنيــة عــن أي ثغــرة في سـجلي المهنـي، مـا وجـدوا شـيئاً يسـتحق الذكـر سـوى بعـض المخالفـات الإداريـة البسـيطة والتـي مـن الممكـن حدوثهـا في سـجل أي مديـر تـولى إدارة أخطـر جهازيــن أمنيــين منــذ العــام ١٩٧٦ وحتــى العــام ١٩٨٩.. كنــت لا أقــرُّ قــراراً إلّا بلجنــة مشــكلة مــن مختصــين، ضبــاط كفوئــين وقانونيــين، ولا أقــصيَّ فــرداً إلّا بامتحــانٍ ويفشــل فيــه.

لكـن حقـد الخصـوم جعلهـم غـير مقتنعـين بالنتائـج كأنـما «رغبـة رأس النظـام كانـت التخلـص مـن كاتـم أسراره والتوجـس ممـن كان يعرفـه».

بقيـت أفكـر مليّـا فيـما يجـري لي: لـو كان أمـر تصفيتـي مـن «السـيد الرئيـس» لفعلهـا بـأسرع مـا يمكـن، ودون أن يطـرف لـه جفـن. لكـن المنـاورة بهـذا التحقيـق العنيـف لا يعنـي سـوى أحـد أمريـن الأول أنـه يريد لي أن يكـسرني وحسـب. والتوقـع الثـاني أن أحـد أفـراد العائلـة الحاكمـة وراءه، يدفـع بـه، ويريـدني أن أدفـع الثمـن. وتبـين ذلـك مـن اختيـار رئيـس اللجنـة التحقيقيـة «عبـد حسـن المجيـد» شـقيق «عـلي حسـن المجيـد»، كان ذلـك جعلنـي استشـف أن «حسـين كامـل» مـن يقـف خلـف السـتار، وهـو بطـل اللعبـة التـي يريـدني أن أكـون ضحيتهـا. عـادة مـا يكـون الدفـع مـن

أحـد التياريـن القويـين، فـالأول يدفـع والثـاني ينفـذ، عـلى الرغـم مـن أنهـما لا يشـتركان إلّا في مكيـدة، ولكـن في الخفـاء يعمـلان ضـد بعضهـما البعـض.

صرت أعلـم جيـداً إلى أيـن سـوف يـؤول بي كل هـذا التحقيـق الـشرس الـذي يجـري معـي، المحسـوم إلى التصفيـة، والإزاحـة، فاخـترت ألا أتنـازل وأكـون كعـادتي أقـوم بـدور المعلـم الـذي يعطـي درسـه حتـى الرمـق الأخـير.

اتصـل بي «حسـين كامـل» [1] وطلـب منـي التحقيـق مـع مواطـن اسـمه «سردار»، وبعـد أن تـمّ إحضـاره كمتهـم، وجهـتُ بالتحقيـق معـه ضابطـا كفـوءاً محايـداً، تبـيّن لنـا بأنـه تاجـر كـردي نظيـف الجانـب، وتـم إطـلاق صراحـه وفـق معطيـات براءتـه، ثـم رحلتـه. عـاودني «حسـين كامـل» في مكتبـي، وكان يريـد المـوت للرجـل، فأطلعتـه عـلى نتائـج التحقيـق، فلـم يقتنـع وطلبـت مـن ضابـط التحقيـق الحضـور أمـام «حسـين كامـل» ليقـدم لـه تقريـرا فيـه وصـف موثـق حـول عـدم وجـود التهمـة بالخيانـة، غضـب غضبـا شـديدا، وتـرك مكتبـي دون أن يـشرب قهوتـه.

تركتـه يذهـب بعـد أن ضحكـت مـع نفـسي عندمـا تذكـرت مـا كان يقـول عنـه «عدنـان خـير الله» العريـف الركـن «حسـين كامـل المجيـد»

---

(١) تولد ١٩٥٤م

حاصد الرتب والمناصب وجميع المكارم، الرجل الذي فاق بتملّقه جميع الحاشية، واستطاع أن يحوز على ثقته المطلقة بعد أن أصبح «الصهر» في عام ١٩٨٣، حظي بوزير التصنيع العسكري، ورئيس اللجنة العليا للتسليح والتصنيع العسكري، والمشرف على الحرس الجمهوري، وقائد القوات الخاصة العراقية، إضافة الى قائد الفرقة الثانية في الحرس الجمهوري..!

بعدما توفي «عدنان» في حادث تحطم طائرته المروحية عام ١٩٨٩، أحسست إني بقيت وحيداً، خاصة بعد العزل من منصب «المدير العام» دون صديق حقيقي، ولا شيء سوى صداقة الكتب، والكتابة.

******

يجب إشغال الجماهير بقضيّة ظاهرة لإخفاء قضيّة باطنة، كي تبقى الباطنة مخفيّة.

******

الكتابة متنفس من خلالها يرسل الإنسان رسائله المحملة بغاياته، وإشاراته. صرت على يقين أن جميع الأوراق التحقيقية سوف تؤخذ إليه، بغرض الاطلاع على كل حرف أكتبه، بينما أنا كنت أحملّها

إشـارات واخـزة كالسـكاكين، لا يفهمهـا سـواه. ولا شـك أنـه يتابـع كل التسـجيلات التـي تجـري في زنزانـة رقـم «واحـد»، مـن بـين الزنازيـن المهمـة المـزروع داخلهـا كامـيرا.

- «ما دورك عندما قامت ثورة تموز المجيدة ١٩٦٨م»؟

كان هـذا السـؤال الغريـب خـارج سـياق التحقيـق، ولـن يخيـب ظنـي أن قلـت؛ فرضـه «السـيد الرئيـس» ليكـون مـن ضمـن الأسـئلة التي يسـألها المحققـون. سـؤال غريـب، مدسـوس دسـاً، فقـد كان سـؤاله «هـو»، كان القـارئ الجيـد لمـا أرسـله لـه بـين السـطور يتابـع حتـى أنفـاسي التـي يتلـذذ بـكل مـا يجـري عـلى مـن سـحق وحـرق، قـرر بنفسـه أن يطلـع عـلى أجوبتـي، وذلـك حسـب السـياقات المعمـول بهـا عالميـا أن يحـرر المتهـم أجوبتـه بنفسـه عـلى مجموعـة أوراق بعـد كل حفلـة تحقيـق، ممهـورة بتوقيعه.

كنـت اكتـب -في ورقـة التحقيـق- كل مـا يخطـر ببـالي، أخاطبـه، ولا أسـتثني تلـك الإشـارات إلى التفاصيـل الصغـيرة التـي عرفتهـا عـن داخلـه وأكشـف عـما أحرجـه بـه، أعـرف إني أقـترب مـن المـوت، ولابـدّ مـن إظهـار معرفتـي لـه، أعـرف أنـه يرتعـب مـن كل الذيـن يعرفونـه جيـداً، لا يطيقهـم، بـل يتمنـى ألا يراهـم يواصلـون العيـش ثانيـة واحـدة، يوقن أن ذلـك التاريـخ مطمـوس، غائـر في العمـق ولم يتبـق أحـد يعرفه مـن الأحياء،

ثمة قسوة من أبيه، وأخرى من زوج أمه، وأخرى دفينة صرت أشير إليها، وكأني أعرفها، لأعجل القرار بخلاصي من التعذيب:

- « كما يقول علم النفس: إن الشخص الذي يستسهل القتل بدم بارد من المؤكد أنه في طفولته شاهد مَثَلَهُ الأول يقتل بسهولة وبدم بارد، وخاصة في حالة قتل أحد الوالدين لشريكه أمام طفله».

ورغم كل ذلك السواد ينتشر ضوء مبهج يجعلني أفهم المحبة الخالصة في البقعة العمياء التي لا تطولها الكاميرات، حيث كان يجري التحدي بتضميد الجراح، من الضرب المبرح، وهناك من يهرّب الطعام الجيد إلى زنزانتي، وكل ما يكفيني من السجائر. كما يترك في المرحاض جردلا من الماء الدافئ، بغرض الاستحمام سرّا مع ملابس داخلية جديدة.

****

بقيتُ اكتب بتحدّ في أوراق التحقيق ما يخطر ببالي، اكتب له عن طبيعة الحياة التي ذقتها في «موسكو» وعن طبيعة ناسها وعن أروقة المدينة التي أقمت فيها أحلى سنوات شبابي. وما يفرضه الروسي من ثقافته علينا، ويجعلنا نطلع على رموزه وأعلامه في علم المخابرات، كي نتعلم منهم الانضباط والطاعة.

الفـرد مراقَـب، ومراقِـب، وعـلى الجميـع أن يسـكن تحـت فـروٍ سـميك تحاشـياً للـبرد، ويخلـد للـدفء، رغـم الجـوع والفاقـة تـاركاً القيـادة السياسـية تقـود البلـد حيـث تريـد، لا تريـد أن يناقشـها، أو يعارضهـا أحـد، كـما لا تريـد مـن موطنيهـا رفـع سـقف الطمـوح لأبعـد مـن خـط الأفـق الـذي ترسـمه القيـادة لهـم عـلى الـورق.

وألّا يتنظـر المواطـن مـن أحـد في الخـارج؛ أن يمـدّ لـه يـد العـون، فالخيانـة متوقعـة، وبفـرض أن كل مواطـن طمـوح هـو خائـن، بفرضهـا أقـرب مـن حبـل الوريـد، الـذي مـن الممكـن ان يجـرح، ويخسر كل قطـرة مـن دمـه. هكـذا طبيعـة النظـام، يفـرض التسـاوي في الجـوع، والتسـاوي في الطاعـة، «كل عملـك أن تكـون بـين النـاس، تسـتمتع بصمـت بـما يأتيـك مـن الشـحيح، فلابـد ان يكـون المـال سـلاحاً، وكل مـا لديـك هـو صناعـة وتنظـر إلى العمـل المنضبـط، تلـك هـي حريتـك» تلـك مبـادئ جسـدت لتكـون جـزءاً مـن الدولـة لا أن تكـون الدولـة جـزءاً منـك».

اسـتطعت تكويـن صداقـات حقيقيـة والتعـرف إلى باطـن تلـك الثـورة التـي تفـور في عمـق ذلـك المرجـل البـشري، تـود أن أسـأل عـن البـارد لأعـرف ماهيّـة الحـار، عـن مسـافة الضـوء في البقعـة المعتمـة التـي يكشـفها، وأعـرف اللـون لأكتشـف بقيّـة تدرجاتـه. أسـأل عـن المسـموح

لأعـرف نقيضـه مـن الممنـوع. أن عامـل الخيانـة هـو العامـل الأهـم في المعادلـة المخابراتيـة، حيـث لا يوجـد تسـليم سـلطة وفـق شريعـة أو دسـتور أو قانـون، سـوى التمسـك بالمنصـب، ولـن يفـك عنـه إلّا بإزاحـة تتـم بالخيانـة، وغالبـا مـا تؤمـر الدائـرة المقربـة بذلـك، دائـرة في مجملهـا مـن مدرسـة واحـدة، كالأفعـى تبـدل جلدهـا كل عـام، أو كلـما احتـاج الموقـف، تبـادل الأقنعـة ويتـم تبديلـه في الوقـت الـذي يناسـب الحالـة، دائـرة ضيقـة، حاضنـة واحـدة، الانقـلاب إلى الجهـة الراجحـة صفـة الغـدر مـن شـيمها.. حرصـوا عـلى تدريسـنا التاريـخ السـياسي الـروسي، القديـم والمعـاصر.. شـخصيات مـن الدائـرة الواحـدة طعنـت بعضهـا البعـض، وبالـدم تـم نقـل السـلطة مـن واحـد إلى آخـر؛ حيـث أنهـار «سـتالين» بعـد حفلـة عشـاء مـع «بيريـا»[1] وقـادة آخريـن، مـات مقتـولا بعـد ٤ أيـام، كـما ذكـرت في مذكـرات الوزيـر «مولوتـوف» التـي نُـشرت عـام ١٩٩٣م. ادعـى أن «بيريـا» سـمّم «سـتالين»، وخـرج متباهيـاً، قـال:

(١) لافرينتـي بيريـا هـو سـياسي سـوفييتي ورئيـس الأمـن السـوفيتي والشرطـة السريـة في عهـد سـتالين. ولـد في «ميرخـولي» في «أبخازيـا» في ٢٩ مـارس ١٨٩٩ وهـو أذري. التحـق بالحـزب الشـيوعي السـوفيتي في مـارس ١٩١٧ وشـارك في الحـرب الأهليـة الروسـية. عـين رئيسـا للشرطـة السريـة السـوفيتية في ١٩٣٨ وكان مسـؤولا عـن تنفيـذ العديـد مـن عمليـات القمـع والتطهـير السـياسي في الاتحـاد السـوفيتي. كان يمثـل الجنـاح المعتـدل في الحـزب الشـيوعي وكان قريبـا مـن سـتالين. بعـد وفـاة سـتالين في ١٩٥٣، حـاول الاسـتيلاء عـلى السـلطة، ولكنـه اعتقـل بتهمـة الخيانـة والإرهـاب والثـورة المضـادة وأُعـدم في ٢٣ ديسـمبر ١٩٥٣م

- «لقد تخلصت من صاحب الوجه المشوه بالجدري، ولم أجعله يتلقَ العلاج حتى بعد مرور ساعات».

بعدها «أصبح «بيريا» رئيساً للوزراء وحليفه «ملنكوف» الذي أصبح كقوة خلف العرش، وجعل «نيكيتا خرتشوف» سكرتيراً للحزب، والذي كان يعتبر أقل أهمية من رئاسة الوزراء، وتعهد «بيريا» بالتحررية، وصفح عن ملايين السجناء، ووقع معاهدة بمنع التعذيب في سجون الاتحاد السوفيتي خلافاً لماضيه الملطخ بالدماء، شكك الجميع به، وخاصة بعد أحداث تمرد ١٩٥٣ في شرق ألمانيا بأن «بيريا» يريد تخليص البلاد والعباد من وطأة الحرب الباردة، وأنه تلقّى الدعم من الولايات المتحدة، فتقرر أن يزيحه «نيكيتا خرتشوف» بالتآمر مع باقي القادة المحيطين به، إذ تمّ عزله كخائن بعد أن تخلى عنه حليفه «مالنكوف».

وفي ٢٦ تموز١٩٥٣ اعتقل «بيريا» وأصدرت المحكمة بحقه حكماً بالإعدام مع جميع أنصاره، ويُقال إنه جثا على ركبتيه طلباً للرحمة، ولكن لا رحمة لمن يعبث مع القيادة السياسية، ثم أُعدم رمياً بالرصاص في ٢٣ كانون الأول ١٩٥٣م [١].

---

(١) سيرغو بيريا - أبي «لا فرنتي بيريا» مرآة ستالين الدموية، مذكرات.

تحدثُ في كل يوم تقريباً فضحية مدوية لأحد من دائرته، وسرعان ما يخفى أثرها، وكأنما أخطاءَهم ليست أخطاء، ومخالفاتهم للشرائع والأعراف ليست بمخالفات. على الرغم من إيقاعها الكارثي فأنها تطمر سريعاً، ويجب أن تنسى كأنها حدث عادي، لن يمرّ عليها يوم حتى تحدث أخرى بمظهر، وبشكل أكثر تعقيدا، وتنسينا ما سبق. تأتي الأوامر الصارمة بنسيانها، وعدم الحديث عنها، لأنها مقتصرة على أبطالها.

ذات مرة «سبعاوي» تورط مع غانية أجنبية، شغف بها بشكل جنوني، وتعامل معها بفظاظته المعهودة ظنّا منه أنها جارية من بين جواريه. كأنما لم يشاهد بعينيه امرأة شقراء من قبل، لم تتحمل البقاء معه حتى يوماً واحداً، حاول أن يرضيها بإغراءات مالية كبيرة كي تبقى معه، وأن تكون زوجةً ثانية له، لكنها رفضت، وقرر حبسها في إحدى المزارع العائدة له، وكان يعذبها أشدّ العذاب، وبقيت أسيرة لديه حتى استطاعت أن تهرب إلى مزرعة مجاورة كانت تابعة لوزير الدفاع «عدنان خير الله طلفاح»، واستطاعت أن تختبئ هناك حتى جاء صاحب المزرعة وأنقذها بنفسه بعد ان استمع إلى قصتها ثم حررها من جبروته «بعض المعلومات الواردة كشفت أن زوجته من ساعدها على الهرب».

بعـد ذلـك اتصلـت بي السـيدة «الهـام خـير الله طلفـاح» وناشـدتني التدخـل بمعيّـة «وزيـر الدفـاع»، وتـم إجـراء شـكلي بفتـح محـضر وبنـاء عليـه تـم ترحيلهـا. وعملـتُ عـلى ختـم جوازهـا بعـدم دخولهـا ثانيـة إلى العـراق، وعندمـا علـم «سـبعاوي» جـنّ جنونـه، وذهـب إلى أخيـه يشـتكي فعلتنـا بـه، ولكـن «السـيد الرئيـس» كعادتـه في مثـل هكـذا أمـر، شـكرنا لأننـا دفعنـا عـن البلـد أزمـة اختطـاف مواطـن مـن الجاليـة الأجنبيـة، وفي الحقيقـة أننـا أنقذنـا لـه أخـاه مـن ورطتـه الفاضحـة.

******

تعمّـدوا ترشـيح العقيـد «فـلان الفـلاني» للتحقيـق معـي، والـذي كان مـن بـين الضبـاط الذيـن كان يعتمـد عليهـم «بـرزان» قبـل رئاسـتي للجهـاز، والـذي كان يـأتي بالنتائـج وفـق مـا يريـد لهـا سـيده. «ضابـط متقـدم برتبتـين عـن أقرأنـه».. كونـه الرجـل المتفـاني في إظهـار الـولاء بـكل مـا يسـتطيع، يفضـل أن نلقبـه «الحـاج»، متملـق إلى حـدّ القـرف، عـلى الرغـم مـن أنـه مدمـن ويسـكي مـن الطـراز الأول، ويفـرض عـلى المتعاملـين معـه أن يكـون النـوع الجيـد مـن ضمـن هداياهـم، يحـرص عـلى وضـع كتـاب القـرآن الكريـم عـلى مكتبـه، وغالبـا مـا يحـشر آيـات قرآنيـة في أحاديثـه وتقاريـره، «المبالغـة في إظهـار الفضيلـة والتمسـك بإظهـار التديّـن

علامـة بينـة لإخفـاء الشـعور بعـار الرذيلـة، المبالغـة بالـورع لا يخفيهـا؛ بـل يفضحهــا!».

****

لـو لم أكـن ضابـط مخابـرات، لأصبحـتُ روائيـا مـن الطـراز المرمـوق، لأني أجـد في حكايـات المتهمـين الصادقـة براءتهـم، وإن كانـت تحتـاج إلى دعمهـا بدليـل مـادي ملمـوس، فالروايـة تعتمـد عـلى الحكايـة المقنعـة، حيـث فيهـا تسلسـل متواصـل لا تنقصهـا حلقـة تجعلنـا نقـف لنبحـث عنهـا، الحكايـات الصادقـة لا تحتـاج إلى التدقيـق في التحقيـق ولا تسـتوجب المبالغـة. صرت أنصـح ضبـاط التحقيـق بالسلاسـة مـع الهـدف أو المتهم، أن يتتبعـه بإصغـاء، حتـى يدلـو بدلـوه. جهازنـا الأمنـي ليـس كابـوس مـوت، وآلـة تدمـير. الهـدف الـذي نحقـق معـه ليـس مسـتهدفا بغـرض الإيقـاع بـه. وأميـل أكثـر إلى نصحـه ألا يسـتهين بعقـل المحقـق، قبـل أن تكـون الجولـة المهلكـة، والقاضيـة. ثمـة معلومـات مترسـخة بشـكل خاطـئ، فالجاسوسـية والمخابـرات همـا مصطلحـان متعلقـان بعـالم الاسـتباق المعلومـاتي، لكنهـما ليسـا مترادفـين. الجاسوسـية هـي عمليـة الحصـول عـلى معلومـات سريـة أو حساسـة مـن جهـة معينـة دون علمهـا أو موافقتهـا، وذلـك لصالـح جهـة أخـرى تتنافـس معهـا أو تعاديهـا. الجاسـوس هـو الشـخص الـذي يقـوم

بهـذه العمليـة، ويسـتخدم لذلـك وسـائل التخفـي والتنكـر والتضليـل والإغـراء والابتـزاز وغيرهـا مـن الأسـاليب. الجاسوسـية تعتـبر نشـاطا غـير قانـوني وغـير أخلاقـي أيضـاً، وتعـرض الجاسـوس للعقـاب الشـديد إذا اكتشـف. والمخابـرات هـي المعلومـات التـي تتعلـق بالأحـداث، أو الظـروف، أو الأشـخاص، أو المؤسسـات، أو المنظـات التـي تهـم جهـة مـا، سـواء كانـت دولـة، أو حـزب، أو شركـة، أو غيرهـا. وأنهـا تسـتخدم لصنـع القـرارات، أو التخطيـط، أو التنفيـذ، أو التقييـم في مجـالات مختلفـة، مثـل السياسـة، أو الاقتصـاد، أو العسـكر، أو الثقافـة، أو البيئـة. وهـي تجمـع مـن مصـادر مختلفـة، مثـل المسـتندات، أو الشـهود، أو الإشـارات، أو الصـور، أو الملاحظـات. وتحتـاج إلى التحليـل والتفسـير والتقديـر والتقييـم لإنتـاج نتائـج دقيقـة ومفيـدة. بالتـالي، يمكـن القـول إن الفـرق بـين الجاسوسـية والمخابـرات كالفـرق بـين المنتـج والمسـتهلك. الجاسوسـية هـي عمليـة غـير شرعيـة للحصـول عـلى المعلومـة مـن جهـة معاديـة، والمعلومـات التـي تسـتخدم لأغـراض مختلفـة مـن قبـل جهـة متطفلـة، وهنـاك العديـد مـن الروايـات احتـوت عـلى شـفرات الاسـتباق، كروايـة «العـراب» التـي كتبهـا «ماريـو بـوزو» التـي كشـفت معلوماتهـا عـن النظـام الداخـلي لتعامـل «المافيـات» مـع العـالم.

ذات مـرة اتصـل بي مكتـب الرئـيس، وجـه لي بطلـب الاتصـال بشركـة ألمانيـة متخصصـة ببنـاء عـشرة بيـوت صغـيرة بتصميـم عـصري، وجـرت المخاطبـات، وتـمّ الاتفـاق معهـا عـلى أن تجهـز تلـك البيـوت بأثـاث لائـق شريطـة أن يكـون صناعـة ألمانيـة. لم تكـن تلـك صفقـة كبـيرة بحـدّ ذاتهـا، ولكنهـا صفقـة بمحصلتهـا دعائيـة، ومـن المؤكـد أن ذلـك الطلـب سـوف يفتـح بابـا آخـر للتعـاون مـع هـذه الشركـة، التـي تمهـد للتعـاون المعلومـاتي مسـتقبلاً، وعـلى أحسـن وجـه.

سـبق لي أن شـاهدت «الماكيـت» الأنمـوذج أعجبنـي وسـألت إن كان بالإمـكان أن تبنـي لي تلـك الشركـة بيتـاً مشـابهاً عـلى تلـك القطعـة التـي اشـتريتها في منطقـة «مجمـع دجلـة»، وقبـل أن أفاتحهـم استحصلت موافقـة الرئاسـة، ولم يتأخـر ذلـك.. ففـي غضـون ثلاثـة أشـهر تـم البنـاء وتجهيـز البيـت، وتـمّ الاتفـاق عـلى دفـع ثـلاث دفعـات مـن راتبـي، دفعـت مبلغـا أوليـا قبـل الـشروع بتنفيـذه، والثـاني قبـل التسـليم، وبقـي القسـط الثالـث، رجـوت الشركـة تجـزأة المبلـغ الباقـي إلى ثـلاث دفعـات أخـرى، بالرغـم مـن معظـم الـشركات الألمانيـة تهـب مكافـأة مجزيـة لـكل مـن يتوسـط لهـا في إبـرام عقـود مربحـة.

وبعـد أن سـلمت الشركـة إلى الدولـة البيـوت العـشرة في الوقـت المقـرر،

تـم تسـليمي بيتـي أيضـاً، وتـمّ الانتقـال إليـه، وكـم فرحـت زوجتـي بتلـك الـدار الجميلـة والأنيقـة عـلى حـدّ تسـميتها.

بعـد ثلاثـة أشـهر مـن تسـلمي البيـت مـن شركـة المقـاولات الألمانيـة، وقبـل إكـمال دفـع بقيـة الأقسـاط الأخـيرة، حـضرت إلى بغـداد «شـاعرة كويتيـة» كتبـت قصيـدة تمجـد بخصـال «السـيد الرئيـس». وجـه لي ورقـة بتوقيعـه بتسـليم ذلـك البيـت كهديـة منـه إليهـا. ولمـا أخـبرت زوجتـي بالموضـع، قامـت بتفريغـه مـن أغراضنـا الخصوصيـة، وتسـليمه دون أن تنبـس بحـرف واحـد.

******

في يـوم مـن شـهر كانـون الأول عـام ١٩٧٥م شـاهدت «حنـان العـاني»، الطالبـة في المرحلـة الأخـيرة مـن أكاديميـة الفنـون الجميلـة قـررت خطبتهـا والـزواج منهـا دون أن أعـرف عنهـا شـيئاً وفيـما بعـد عرفـت عـن منزلـة أبيهـا أحـد القضـاة المعروفـين، المحترمـين، سرعـان مـا حصلـت عـلى عنـوان أبيهـا، ذهبـت لمقابلتـه وخطبتهـا بصحبـة شـقيقي الأكـبر الـذي كان مصادفـة في زيـارة لي، وقـام بنقلنـا معـا صديقـي «عدنـان خـير الله» بسـيارته السـلحفاة «الفوكـس واكـن طـراز ١٩٧٢».

أحيانـا تبقـى تلـك الشـذرات الناعمـة متهاديـة بطيبهـا في البـال تجعلنـا

نقـاوم الثقالـة، رغـم الألم، أحـاول النـوم، متمسـكاً بتلـك المسـاحة الطريّـة، ومتمنيـا ألا أصحـو منهـا أبـداً.

****

عنـد قـراءة بضعـة أسـطر، يحـدث بينـي وبينهـا امتـداد مـن التفكـير المتواصـل في المعنـى. أكتـب دون أن أفكـر بـاني أشـغل زنزانـة، ومـن بـين جدرانهـا الأربـع أبـثّ خلجـاتي، أقـرأ مـا أكتبـه كأنـما أحصـل عـلى فرصـة لتنفـس هـواء نقـي، تدوينـات التحقيـق، اسـتراحة المحـارب، أكتبهـا وأكـرر قراءتهـا، عشـقي للقـراءة يجعلنـي أعيـد القـراءة فيـما كتبتـه عـشرات المرات، دون ملـل، لا شيء يريحنـي بعـد كل حفلـة تحقيـق قـدر الإجابـة التحريريـة، أحلـق بعيـداً، وأكتـب فيهـم مـا أريـد.

أكتـب قصصهـم الحقيقيـة، علاقـاتي المبـاشرة مـع كل فـرد فيهـم، اتهامي لهـم لأنهـم السـبب في انهيـار القانـون. بقانونهـم المنحـرف؛ فـلا يجـوز أن يـسري قانـون البدائيـة عـلى العبـاد والبـلاد:

- «أنا وأخي على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب»

****

العرابـان الكبـيران همـا «خـير الله طلفـاح»[1]، و«أحمـد حسـن البكـر» اللـذان أوصـلاه إلى قمـة السـلطة المطلقـة. والبدايـة تعـود إلى أيـام كان «البكـر» فيهـا رازحـا تحـت الإقامـة الجبريـة أيـام «عبـد الكريم قاسـم» وكان بحاجـة إلى فدائـي جـريء لا يعـرف الخـوف يقتحـم الأسـوار سرّاً، ويـأتي إليـه برسـائل رفاقـه ويعـود إليهـم بتوجيهاتـه. إذ اقترحـه «ابـن العـم» عـلى ابـن عمـه الفتـى ابـن أختـه «صـدام حسـين المجيـد». وشـهد لـه مهارتـه في فهـم محتـوى الخارطـة السياسـية، وتكليفـه بإزاحـة كل الخصـوم تحـت ضـوء القمـر أو الشـمس، بـات الـذراع الباطشـة بمـن يريـد، وتأكـد لـه ذلـك مـن تنفيـذ الاغتيـال التـي تمهـد لـه ليصبـح الرئيـس القـوي، وبالمقابـل أخـذ يرفعـه في المناصـب حتـى اختـاره نائبـا قويـا يسـنده، وذلـك منـذ أن سـاءت العلاقـة المعقـدة والمتغـيرة، بـين «قاسـم» و«البكـر» بعدمـا انقلـب مـن التعـاون إلى المنافسـة، ومـن ثـم إلى العـداء، وتبـين ذلـك الـصراع جلياً بعـد إبعـاد «الرئيـس الفخـري «نجيـب باشـا»[2] عـن رئاسـة مجلـس السـيادة.

---

(١) خـير الله طلفـاح هـو سـياسي ومـؤرخ عراقـي، وهـو خـال الرئيـس العراقـي الأسـبق صـدام حسـين ووالـد زوجتـه سـاجدة خـير اللـه طلفـاح. ولـد في قريـة العوجـة بالقـرب مـن تكريـت عـام ١٩١٩ وتعلـم في مدرسـة الكـرخ في بغـداد. شـارك في حـركات قوميـة وعسـكرية مختلفـة وعـين محافظـا لبغـداد بعـد انقـلاب ١٩٦٨ وكان متذمـراً حتـى مماتـه ويشـتم رأس النظـام دون تحفـظ بأقـذع الألفـاظ.

(٢) «نجيـب باشـا الربيعـي» ولـد في بغـداد عـام ١٩٠٤ التحـق بالمدرسـة الحربيـة الملكيـة وتخـرج فيهـا عـام ١٩٢٧، ثـم التحـق بكليـة الأركان العراقيـة والتركيـة. تـدرج في الرتـب العسـكرية حتـى

حيث كانا «عبد الكريم قاسم» و«عبد الرحمن عارف» ضابطين في الجيش العراقي، وشاركا في ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨ التي أنهت النظام الملكي، وأسست الجمهورية العراقية. وانتقل العراق من عهدة المخابرات الإنكليزية إلى عهدة المخابرات السوفيتية، وبات «عبد الكريم قاسم» رئيسا للوزراء والقائد العام للقوات المسلحة.

انضمّ إليهما «أحمد حسن البكر» في الحكومة الجديدة، ولم يدم نجاحه طويلا ليجبر على التقاعد بعد انضمامه لحركة الشواف بالموصل، كان «البكر» عضوا في حزب البعث العربي الاشتراكي، وكان له تنظيم سري يسمى «المنصور» يهدف إلى تحقيق الوحدة العربية والاشتراكية.

وقد اندلعت خلافات بين «قاسم» والبعثيين بسبب مواقفهم المتباينة تجاه القضايا الوطنية والعربية والدولية، مثل قضية «الكويت» و«الاتحاد مع مصر» والعلاقات المباشرة مع الاتحاد السوفيتي.

عندها شارك «البكر» في محاولة انقلاب عسكري ضد «قاسم» في ٧ تشرين الثاني عام ١٩٥٩م، وفشلت بعد أن أدت إلى إصابة «قاسم» بجروح. فتم اعتقال «البكر» وحكم عليه بالإعدام، لكن تم تخفيف

بلغ رتبة فريق ركن عام ١٩٥٧. يعد الرئيس الأول للجمهورية العراقية الذي تولى رئاسة مجلس السيادة بعد حركة تموز ١٩٥٨ التي أنهت النظام الملكي، وهو أحد قادة الحركة الوطنية العراقية والحزب الاستقلالي، وتوفي بغداد ١٩٦٥م.

الحكم إلى السجن المؤبد، ثم الإفراج عنه في عام ١٩٦١. بعد وضعه تحت الإقامة الجبرية حتى شارك في انقلاب آخر ضد «قاسم» في ٨ شباط عام ١٩٦٣، والذي نجح وأدى إلى مقتل «قاسم» وتولي «البكر» منصب رئيس الوزراء ونائب رئيس الجمهورية في حكومة ائتلافية بين البعثيين والناصريين.

ولكن لم تدم الحكومة الائتلافية طويلاً، فاندلعت صراعات بين البعثيين والناصريين، وأطيحت الحكومة في تشرين الثاني ١٩٦٣، وتم اعتقال «البكر» والعديد من البعثيين والتنكيل بهم. بعدها تمكن البكر من الهرب من السجن في عام ١٩٦٦، وأصبح رئيسا للقيادة القومية لحزب البعث، وبدأ في إعادة تنظيم الحزب وتوحيد صفوفه.

ثم عاد «البكر» ليقود ثورة ١٧ تموز عام ١٩٦٨، وأسقط النظام الناصري وأعاد حزب البعث إلى السلطة، وأصبح «البكر» رئيسا للجمهورية، والحزب والوزراء والقائد العام للقوات المسلحة. وفي عهده، شهد العراق تطورا اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا نتيجة ارتفاع أسعار النفط وتنفيذ سياسات الإصلاح الزراعي والتعليمي والصحي والقانوني، وتحسنت العلاقات مع الدول العربية، والإسلامية، والاشتراكية، والمحايدة.

لكـن ذلـك لم يـدم طويـلاً حيـث بـدأ «البكـر» يخسر السـلطة تدريجيـا أمـام «السـيد النائـب» الشـاب الطمـوح، الـذي تـولى مهـام الرئاسـة الفعلية والقيـادة الحزبيـة والأمنيـة، بعـد أن صفـى كل مـن كان أمامـه مـن قيـادات الصـف الأول، لتعزيـز تقدمـه إلى السـلطة المطلقـة.

وفي ١٦ تمـوز عـام ١٩٧٩، اسـتقال «الأب القائـد» من مناصبه «لأسـباب صحيـة»، وخلفـه كرئيـس للجمهوريـة والحـزب والـوزراء والقائـد العـام. تـوفي «الرئيـس البكـر» في ٤ تشريـن الأول عـام ١٩٨٢، لأسـباب صحيـة، ودُفـن في مقـبرة الكـرخ في بغـداد.

******

درسُ الإسـتراتيجيات، أهـمّ عصـب في علـم المخابـرات، الـدرس الـذي يُعلـم التـوازن، والاختيـارات الصحيحـة، والمـؤشر الـذي يتحـرى مـن دقـة المعلومـة، ترتيـب خطـط التقـرب مـن الهـدف المعـين اعتـماداً عـلى المـوارد والظـروف المتاحـة. هنـاك أنـواع مختلفـة مـن الإسـتراتيجيات تسـتخدم في مجـالات متعـددة مثـل الحـرب، والسياسـة، والأعـمال، والتعليـم، والتسـويق، وغيرهـا. كل نـوع مـن الإسـتراتيجيات يتطلـب تحليـل الوضـع الحـالي والمسـتقبلي، وتحديـد الأهـداف والمهـام، واختيـار الوسـائل والأسـاليب المناسـبة، وتنفيـذ الخطـة ومراقبـة النتائـج، ولـكل فكـرة في

العقــل البــشري مركــز تتكاثــف فيــه المكونــات، وكلــما كان الاختيــار بمعرفــة، أحدثــت توازنــا يضمــن المســتقبل.

الإنســان كائــن حــي يتفاعــل مــع كل مــا حولــه مــن موجــودات، الميــل إلى شيء ربــما يســقطه في فــخ الرغبــة، التحكــم بالرغبــات قمــة إنســانية الإنســان عاليــة تجعــل مــن النفــس بعيــدة عــن الأوهــام.

جعــل منــا درس المخابــرات الــذي درســناه نفصــل بــين مــا كنــا نظــن، وبــين ماصرنــا نعــرف. اطلعنــا هــذا الــدرس الشــديد الأهميــة عــلى نــماذج لنســتوعب الغايــة منــه، درس التوازنــات، مــن أجــل مســتقبل البــلاد، تتطلــب معرفــة كيفيــة احتــواء المــكان عندمــا تريــد مــن المــكان أن يحتويــك.

يحكــى عــن دجــال ذهــب إلى «ســتالين»، وقــال للحــارس الــذي عــلى بابــه أريــد أن أقابلــه بإمــكاني قــراءة الطالــع ومعرفــة المســتقبل، وعــاد الحــارس مصدومــا مــن ردة فعــل «القائــد الــضرورة» الــذي أمــره أن يطلــق النــار عليــه فــورا، قائــلاً: «لــوكان هــذا الأحمــق يقــرأ المســتقبل جيــدا لعــرف أنــه ســيموت عنــد بــابي ولمــا جــاء إلى حتفــه».

إذا دخلــت في نقــاش مــع رجــال الديــن، أبــدِ لهــم كامــل احترامــك وفي نفــس الوقــت بــيِّنْ لهــمُ أنّ ذلــك الاحــترام ليــس لهــم وإنــما لمــا يحملــوه في قــرارة نفوســهم لاحــترام قدســية الإلــه، ولا تجعــل مــن النــاس أن تصــدق

كل ما يقولونه، ناقشهم كسياسيين مجردين من حب الله وحسب. مهما كانت مطالبهم، فأنها ليست مطالب الله، إياك أن تجعلهم يفرضون عليك ما يريدونه بحجة إنه من عند الله، الانصياع لهم استسلام، سوف يفرضون عليك أوامرَ لا رجعة فيها ولا مناقشة، يفرضونها وكأن الله قد قال كلمته النهائية التي لا رجعة فيها. ويكون كلام الله أمراً عليك.

التعاون مع «إيران» كانت كفة معادلة خاسرة، لأنها قيادة ماكرة ولا داعٍ بعد كل تلك السنوات من الشتائم والبارود والتجسس، الاعتذار عن الحرب الطاحنة.

كان ذلك اعترافا بأنه من بدأ بشن الحرب على جارته، وذلك ينافي الحقيقة. وسوف يكون ملزما بتعويضها عن كل خسائرها، لذلك هم المبادرون بذكاء، ومن تحت الطاولة كانوا يدفعون به أن يبقى في الكويت، وسوف يسندوه ضد العدو المشترك.

والأدهى جعلوه يأمن جانبهم بوضع ثروته من الطائرات الحديثة. وتم نقلها إليهم ليعود له طياروه براً، «وكأنك يا بو زيد ما غزيت».. كنت أدرك جيدا كيفية عمل التروس الروسية ناقلة الحركة، فكل ترس يدور عكس ما يقابله، ولكنه في الوقت نفسه ينقل الحركة

إلى تـرس بديـل يعمـل لصالحهـا..

هـذا مـا فهمتـهُ النـاس التـي ليـس لديهـا سـوى المعلومـة التـي تتلقاهـا مـن الإعـلام، وتخفـي في حقيقتهـا شـيئاً آخـر، مفادهـا أن «المخابـرات الروسـية» وراء تلـك التصرفـات التـي جعلـت منـه يبـدو كالبليـد الـذي لا يسـتمع إلى نصيحـة أحـد ولا يـودّ الانسـحاب مـن الكويـت كأنـه غـير العـارف بالسياسـة الدوليـة وتوازنهـا. وفي حقيقتهـا أن تلـك الأوامـر كانـت لعبـة لعبتهـا الإسـتراتيجية الروسـية، دهاقنـة السياسـة.

******

رأس المثلث في القمة، نقطة واحدة ولا تتسع لشيء آخر.

الدكتاتوريـة تسـتوطن العقـل، تـؤدي بـه إلى التفاقـم والتعـالي، والتعـالي أبـرز حالـة مـن حـالات عـدم التصالـح مـع النفـس تجعلـه ينظـر بريبـة إلى كل مـن يتحـدث معـه عـن سـلبيتها، كأنـما يعـارض نظامـه بشـدة، الدكتاتـور يوجـه بمحاكمـة كل لسـان يواجـه بسـلبية ادائـه، ولا يسـامح أبـداً، وكل ناصـح قـد أسـاء حسـن الظـن بـه.

******

بعـد فـترة غـير محسـوبة مـن احتجـازي الطويـل في مقـر الحاكميـة

الرئيسة، وأثناء حفلة من حفلات التحقيقات الأولية التي كانت تجري معي، سمعنا صوت انفجار قريب اهتزت له البناية، ظننته خلخلة في جهاز توازني جراء إحدى الضربات العشوائية على أذني التي كنت أتلقاها من أيدي المحققين الغاشمة. بقيت معصوب العينين، بعد أن جعلوني بين اثنين يصفعاني باليد المفتوحة، وبانتظام بكل قوة على وجهي فقط، دون توقف، ذلك الانتظام في الضرب يجعل الضربة المنتظرة تحفر مكانها قبل وقوعها، كل ثانية بضربة توجه إلى الرأس حتى أصبحت مثل ثور الساقية أدور حول نفسي من شدة الضرب المتتالي المنتظم، مع السباب النابي، الذي تطلب مني الصبر والتحمل.

في غفلة من الألم وتلقي الضربات، اهتزّ المبنى مرة أخرى من تحتنا بضربات صاروخية وجهتها قوات التحالف لتفتيت البنية التحتية لكافة المرافق الحيوية، وقد أصاب صاروخ الوجهة الخلفية من البناية. ثم ارتفع صوت جهاز الإنذار جعل من تلك الحفلة أن تتوقف.

في صباح اليوم التالي تم نقلي مع بقية السجناء إلى عمارة ثانية تبتعد قليلا عن هذه كنّا نسميها بـ «عمارة السيارات» كونها تناظرها بالحجم، مصممة كموقف لسيارات المنتسبين، ويبدو أنهم قد حوروها على وجه السرعة، وجعلوها البناية البديلة التي لا تلفت الأنظار، ولم أعد أعلم

كيـف تـم توزيـع رئاسـات المديريـات بمنتسـبيها. ثـم نقلنـا كمحتجزيـن لم يكتمـل التحقيـق معهـم، وزعونـا عـلى جميـع الطوابـق بعـد أن جعلـوا مـن كل موقـف سيارة زنزانتـين لـكل منهـما بـاب حديديـة، وتـم عـزل كل متهـم لوحـده، بإمكانـه أن يسـمع زميلـه الآخـر، ولكـن لا يـراه. لم يتـم عـزل الصـوت في كل زنزانـة عـن الأخـرى حيـث الجـدار الحديـدي. كان يحتـاج إلى مـواد أخـرى لم يتسـن توفرهـا بتلـك الفـترة القياسـية، وبسـبب انعـدام العـزل الصـوتي تـم تهديدنـا بعـدم التكلـم مـع بعضنـا البعـض، وقـد تقـرر بعـد كل حفلـة، تسـليم كل متهـم مجموعـة مـن الأوراق فيهـا عـدة أسـئلة لتدويـن الأجوبـة فيهـا تحريـرا، فقـط. حيـث صـارت الحفلـة مـرة أو مرتـين في اليـوم الواحـد، وفي كل مـرة تكـون أقسـى مـن سـابقاتها، ولم نعـد نسـمع مـن بعضنـا سـوى الانـين والصرخـات.

******

لا أعـرف كيـف شـعرت أن «السـيد العـام» كان يجلـس أمامـي بصمـت عـلى كـرسي قريـب، ويحـرص بنفسـه عـلى مشـاهدة حفلـة تحشـيد الألم. ربـما مـن صـوت عـود الثقـاب الـذي يشـعل بهـا سـيجارة «الهافانـا»، ربـما مـن بعـض التباطـؤ والارتبـاك في حركـة فريقـه، حيـث العصبـة المشـدودة بقـوة، حجبـت عنـي كل الرؤيـة، ولم تجعلنـي أتعـرف إلى بقيّـة الـشركاء

الذيـن معـي في القاعـة، أكـدت ذلـك همسـات وضحـكات مكتومـة دلـت عـلى فريـق الحمايـة بصحبتـه. «في السـابق قلـت لـه مـرة لا داعٍ لتدخـين سـيجار غـالٍ مـا دمـت لا تحتمـل حرارتـه، أو حتـى الإمسـاك بـه».. حتـى بـات شـعوري يقينـا أنـه قريـب ففـي لحظـة مـا سـمعت أحدهـم يقـول لـه بهمـس «سـيدي هـل أفـرغ لـك كأسـاً آخـر»، ولكنـه لم يجـب، ويبـدو أنـه أشـار بحركـة مـن يـده لنادلـهِ بالموافقـة، وكأن لا يريـدني أن أعلـم بحضـوره.. تأكـدت مـن الصـوت الـذي أحدثتـه قطـع الثلـج وهـي تنـزل إلى قعـر الـكأس الزجاجـي، بـأن الحفلـة الحقيقيـة لم تبتـدأ بعـد. بـات اليقـين أنّ وجـودي في الحيـاة برغـم ابتعـادي عنهـم، يضعـف وجودهـم، بـل ويشـكل تهديـدا دائـما عـلى إزاحتهـم جميعـاً، تأكـد لهـم ذلـك، وقـرروا جميعـا العمـل سريعـا عـلى إزالـة الشـخص الخطـر، قـال المحقـق «لم لا تنـوي الاعـتراف وتوفـر علينـا المشـوار الـذي لابـد منـه»، تنفسـت عميقـا، وكان بمثابـة إيـذانٍ بـأني مسـتعد لمـا سـيفعله، وقـررت أن لا أقـول شـيئا سـوى أن أريـه ابتسـامتي التـي يكرههـا كل محقـق مـن المتهـم الـذي أمامـه، ابتسـامة تعمّدتهـا أن تكـون أعـرض مـن سـابقاتها، رغـم يقينـي سـيكون ثمنهـا باهظـا، تماديـت بمواصلـة ابتسـامتي، وافتعلـت عـدم اهتمامـي بـما سـوف يـأتي، وأخـذ المحقـق ومسـاعداه ينهضـاني مـن الأرض التـي باتـت تتقبلنـي عندمـا ألجـأ إليهـا مـن تـوالي الضربـات.

سمعت: - «حاضر سيدي».

ويبـدو أنـه اقـترح عليهـم تجريـب مناورة أخـرى، وبـدأ الاثنـان بلـفّ حبـل حـول وسـطي، وفـوق السلسـلة الحديديـة ذات الاصفـاد فأحكمتـا يـديّ إلى الخلـف، واحكـما عقـدة الحبـل حـولي، وقـال المحقـق «شـغل الموسـيقى» وفعـلا اندلعـت موسـيقى ضاجـه وعاليـة، «الله يخـلي الريـس الله يطـول عمـره، وبعدهـا تـم تغيرهـا إلى أغنيـة لِـ «منـى العبـد الله» التـي جـاءت بصـوت نقـي تقـول: «صدقـوني مـا مليتكـم روحـي حمامـة بيتكـم».. سـألني المحقـق: «هـل تعجبـك هـذه الأغنيـة»؟

هبّـت عاصفـة مـن الضحـك تأكـدت مـن صوتـه الأجـش بـين الأصـوات. لكزتنـي عصـا بقـوة، قـال حاملهـا: «أجـب.. هـل تعجبـك؟» هـزرت رأسي دلالـة الموافقـة، ثـم قـال: «هيـا.. ارقـص إذن»، لم أفهـم مـا قصـده، ولكـن كـرر قولـه:

- «قلـت لـك مادامـت تعجبـك الأغنيـة فارقـص عـلى إيقاعهـا»، ثـم جاءتني لكمـة لم تكـن قويـة، تعمـدت خـاصرتي، بنـبرة أمـر «هيـا ارقـص»، لم يكــن أمامــي الا الانصيــاع إلى هكــذا أمــر فهــو ليــس بالاعــتراف، ثـم أخـذت أطـوّح بنفـسي، يمينـا ويسـارا لكـن طـرف الحبـل الثقيـل المشـدود حـول وسـطي أثقلنـي امتـداده، ولا أعـرف إلى أيـن امتـداده،

عثـرت وبـدوت أرقـص كمهـرج مشـلول، أبـدو لهـم إني منتـمٍ إلى الحيـاة أكثـر ممـا هـم ينتمـون، وفي القـرارة أعيـش المـوت، وأن أتقبلـه، ولا أظهـر انكسـاري. فأعمـد إلى الابتسـام لتكـون الإضـاءة في وجهـي بينـة رغـم المسـاحة الضيقـة، وعـلى يقـين تـام أن ذلـك سـوف يجعـل وجهـه المتجهـم أكثـر تجهـما وبشـاعة، وسـوف يحفزهـم ذلـك عـلى القسـوة أكثـر.

أثنـاء ذلـك التطـوّح الأعمـى، أخـذني الحبـل مـن وسـطي بسرعـة خاطفـة، وصـار رأسي منكوسـا إلى الأرض، ورفعنـي حيـث ضاعـف الظـلام مـن خـوفي والحبـل يأخـذني إلى الأعـلى، إذ اسـتعانوا بماكينـة تـبرم الحبـل لأصعـد إلى اعـلى بسـهولة، لم أشـاهدها مـن قبـل. جعلتنـي أخـاف أن تسـقطني عـلى وجهـي مـرة واحـدة كـما رفعتنـي. سـمعت الضحـكات مـن حـولي قـد كشـفت رضـاه عـما يفعلـوه بي، ويشـجعهم عـلى المزيـد دون رحمـة. البعـض مـن المنتسـبين يكونـون أكثـر مـن «القيـصر في إرضـاء القيـصر لنفسـه» كنـت موقنـاً أن وجـوده بـين حضـور هـذه الحفلـة ليمحـو كل رهبـة يشـعرونها تجاهـي، وأن ذلـك يجعـل منـي كسـيراً أكثـر، ويقويهـم عـلى حالـة الخـوف التـي تنتابهـم ولا يحسـوني قويـا لا أهـاب برغـم مـا يجـري عـلي، وكأنـه يوحـي إليهـم بـأن هـذه هـي وقعتـي النهائيـة، وعليهـم فعـل المزيـد دون تـردد. يبـدو أنّ المزيـدَ مـن الويسـكي قـد حـضر، وتـم توزيـع الكـؤوس فيـما بينهـم، وسـمعت قعقعـة كـؤوس الأنخـاب وهـي

تقـول لبعضهـا بصحتـك، أمـا «السـيد العـام» يشـعر مـع نفثـات دخـان سـيجار الهافانـا بمزيـد المتعـة والإثـارة.. بينـما صـوت «منـى العبـد الله» يهـدر، والأسـطوانة تـدور.

فعـلا كانـت هنـاك رافعـة هـي التـي اسـتدارت وأنـا في الأعـلى لتنزلنـي إلى برميـل مملـوء بالمـاء وتـم إفـلاتي فيـه دفعـة واحـدة، فاجـأني السـقوط، ولم تفاجئنـي بـرودة المـاء، قـررت أن أتمالـك نفـسي قليـلا قبـل أن ينفـد الأوكسـجين الـذي في رئتـي، وأن أتحمـل، ربـما أجعلهـم يقسـون عـليّ أكثـر، وأودع هـذه الحيـاة مختنقـا في برميـل، وبذلـك أسـجل عليهـم جريمـة لم يسـتخدم فيهـا أحدهـم مسدسـه ويفجـر رأسي، ولكـن الرافعـة رفعتني إلى أعـلى، ومـن ثـم أطلقتنـي سريعـا لأسـقط بقـوة في المـاء، كانـت الضحـكات مفتعلـة، وكأنهـم مجـبرون عليهـا، كنـت أسـمعها كأنهـا مليئـة بالمـرارة رغـم الـشراب، ورغـم الأغنيـة التـي تناسـب ذوقهـم. تحـوي رسـالة، واختيارهـا ليـس عشـوائيا، ولكـن المعـاودة في رفعـي وإنـزالي بسرعـة إلى برميـل المـاء، جعلتنـي أتوقـف عـن التحليـل والتدبـير، ليـس أمامـي سـوى الابتسـامة القاتلـة التـي أرد بهـا عليـه، وعليهـم، وعـلى الضحـكات والهمسـات الماجنـة.. إذا وصـل بهـمُ التهكـم إلى سـؤال أتفـه مـن أن يسـأله محقـق تافـه

«ما علاقتك بسعاد حسني[1]».. سؤال لم يستحق مني أن أسمعه، ولم أكف عن الابتسامة المرّة، فهمت منه أنه سؤال يؤكد الفريّة التي جعلت المُكلف بتشغيل ماكينة الرفع يتلكأ في عمله، حتى صاح به المحقق «عشر مرات طويلة»، وراحت الماكينة ترفعني وتنزلني إلى عمق البرميل، وظلت العملية تتكرر، كدت أختنق، ولكني بقيت صامتا، لا حول لي ولا قوة سوى الشهقة التي تصدر مني في كل مرة. سمعت ضربة قدم، تحية عسكرية لألفات النظر، وحدث صمت بعد أن توقفت الأغنية فجأةً ليخبره السكرتير بأنه مطلوب لأمر مهم، وعلى وجه السرعة.. نفث دخان سيجارته بسأم، وهمّ بالخروج، ويبدو أنه قبل أن يغادر أشار عليهم بنقلي إلى غرفة الرياضة.. بعد أن يئِسَ مما كان يريده مني. بعدها رفعتني الرافعة بالحبل للخروج من البرميل، ومن ثم أعادتني إلى المكان الذي حملتني منه، ولكن هذه المرة برفق، ومن ثم فكوا عني الحبل.

لم أكن أقوى على المزيد من الحركة، ولكني أقاوم بابتسامتي لأظهر لهم بأني ما زلت متماسكاً، رغم كل شيء. قام اثنان بسحبي سحلا، كأنما رجليَّ ما عادتا تحملاني. وأدخلاني رفسا إلى «غرفة الرياضة»

---

(١) ممثلة مصرية.

التـي لم تكـن إلّا علبـة فولاذيـة مكعبـة مسـاحتها أقـل مـن مـتر، لهـا بـاب وقفـل ومنفـذ واحـد لإدخـال الطعـام، غرفـة خاصـة بانتـزاع الاعترافـات العصيّـة، والتـي كانـت كفيلـة بـأن تجعـل مـن الـذي يدخـل إليهـا قـسراً غـير قـادر عـلى الحركـة بعـد قضـاء يـوم أو يومـين، بعـض الأشـخاص احتاجـوا لأكثـر مـن المـدة المقـررة، وقـد قدمـت تلـك الغرفـة نتائج قياسـية، لأنّ الشـخص الـذي يدخـل إليهـا يبقـى مقرفصـاً لـن يسـتطيع أن يقـوم بأية حركـة، بالـكاد يحـرك يديـه دون كتفيـه. وعُرِفـتْ حسـب المصلـح الـدراسي بغرفـة «يـان كارلوفيتـش برزيـن» الـذي هـو مَـن ابتدعهـا يـوم كان يشـغل منصـب أول رئيـسٍ لـلإدارة الرابعـة «المخابـرات» لأركان الجيـش الأحمـر بقـي في المنصـب مـن ١٩٢٤- ١٩٣٥، ويقـال بأنـه مـن بـين الذيـن دخلـوا إليهـا بعدمـا اتهمـوه بالخيانـة، وإعدامـه أثـر محاولـة الانقـلاب عـام ١٩٣٨.

في الدقائـق الأولى مـن دخـولي إليهـا لم أشـعر بـشيء إذ كانـت محطـة اسـتراحة، مـن جـراء الحفلـة السـمجة التـي كانـت الغايـة منهـا توصـلي إلى الشـعور بالـذل، ولكنهـا لم تخلـف خسـارات كثـيرة. امتـلأت أذنـاي بالمـاء، وبقيـت مخضـلا بالـدم، بعـد أن كادت حافـة البرميـل التـي صدمـتُ بهـا أن تذهـب صيـوان أذني اليـسرى، نـزل الـدم إلى فمـي مختلطـا مـع المـاء الـذي علـق بي. بعـد ذلـك سـحبوا «غرفـة الرياضـة» وجعلوهـا قريبـة مـن الحمامـات الخاصـة بالموقوفـين. مـا إن اسـتقرت أنفـاسي حتـى غفـوت لأكثر

مـن سـاعتين، وجـدت مثانتـي ممتلئـة، وتمنيـت أن يصادفنـي أحـد المراتـب الذيـن يتعاطفـون معـي وينقـذني بالسـماح بدخـول الحـمام. أزحـتُ العصبـة التـي حـول عينـي، بعـد أن وجـدت يـديَّ طليقتـين. لم أعـرف متـى حـدث ذلـك، هـل فقـدت الوعـي طويـلاً.. عندهـا عهـدت أنَّ الدقائـق كانـت تمـر ببـطءٍ شـديد.

فقـدت التعامـل مـع الزمـن.. حالـة الزمـن باتـت دون اهتمامـي، تركـت حسـاب الأيـام وحتـى معرفـة تاريـخ اليـوم.. انغمسـت في حالـة شـوق لعائلتـي ورحـت أقبـلُ عـلى رؤوس أصابـع يـدي فـرداً فـردا، كان الوقـت يمـضي ثقيـلاً، أحسسـت أن الـدم الـذي نـزل مـن صيـوان أذني اليـسرى قـد انقطـع، وخلـف لي حكّـة.. فركـت مـا تبقـى مـن الـدم المتيبـس، أتذكـر جملـة «آرنسـت هيمغـواي» التـي تقـول: «قـد ينكـسر الإنسـان، ولكنـه لا يهـزم»، حيـث العبـارات الرنانـة غـير متكافئـة مـع الألم في الظهـر، وفي الكتفـين، والسـاقين، خاصـة بعـد أن صـار يصعـد إلى كل أنحـاء جسـمي، حاولـت أن أنكـر الهزيمـة واتحمـل الألم الـذي صـار يحـدث مـن امتـلاء المثانـة. كنـت أسـمع أبوابـا تطبـق وأخـرى تفتـح، قلـت لعلـه موعـد إخـراج المتهمـين إلى الحـمام، حيـث يتـم السـماح لهـم بذلـك مـرة واحـدة في اليـوم، عسـى أن يمـر ويزيـح عنـي هاجـس البقـاء في هـذه الغرفـة قـد يجـبرني أن أدع بولتـي تنـسرح منـي دون سـيطرتي عليهـا. بقيـت الأصـوات

تصـل إليّ ضعيفـة وخافتـة، بينـما أنـا أنظـر بعيـدا إلى آخـر الممـر مـن خـلال فتحـة إدخـال الطعـام، كـي أعـرف في عتمـة أيـة سـاعة مـن الليـل أو مـن النهـار.

******

نشـأتُ مفتونـا بالبعـث، يومهـا كانـت الأيدلوجيـا تمطـر علينـا صراعات في ظاهرهـا هتافـات ومبـادئ وفي حقيقـة باطنهـا الاسـتحواذ عـلى الإنسـان، وتدجينـه، وتهيئتـه إلى مـا يـراد لـه، أو يـراد منـه. هتافـات مُبطنـة بأهـداف تصـبّ نتائـج صناعتهـا في مصالـح مـن يطلقهـا وينشرهـا بيننـا، كلـما أخذنـا بهـا تكـبر وتصـل إلى حالـة لهـا عمـق، ولهـا فعـل لأن الجمهـور الـذي يعتقـد بهـا سـوف يفعـل مـا يؤمـر بـه، يكـون الفعـل كأنـما فعلتـه الأيدلوجيـا، وكلـما كثـرت الأفعـال باسـمها وتحـت يافطتهـا تكـون لهـا قاعـدة جماهيريـة أكـبر، حـب الجماهـير لهـا يعطيهـا صفـات وتلـك الصفـات تتفـرع لتكـون واجهـة جاذبـة، خاصـة في المجتمعـات التـي نشـأت عـلى التسـطيح الـذي هـو سـبب بلائهـا. هيمنـة الدولـة العثمانيـة كانـت بواسـطة الديـن، لأن الأتـراك أمـة اعتمـدت القوميـة الواحـدة، ونـادت بأيدلوجيـا الانضـواء تحـت مبـادئ «الديـن الـذي لا يفـرق بـين عـربي وأعجمـي إلا بالتقـوى». ولمـا أراد الإنكليـز إثبـات وجودهـم ومحاربتهـا جـاءوا بالقوميـة

لنصرة القوم، ولكن الطرف الآخر رد عليهم بما أرادوا محاربتها جاءوا بالاشتراكية الشيوعية، ولما أرادوا محاربتها جاءوا بالقومية الاشتراكية.

كان البعث واسع الانتشار في محيطنا، ويلوّحَ لنا بمزج القومية بالوطنية، فالوطنية هي الشعور بالفخر والاحترام بالوطن، والدفاع عنه، بغض النظر عن تنوع الهويات الوطنية داخله. القومية تطلبت وجود دولة تمثل الأمة، أو السعي لإنشائها، بينما الوطنية تقبل العيش في دولة متعددة الأمم، مع الحفاظ على الحقوق والحريات الفردية والجماعية. القومية ظاهرة حديثة، نشأت في القرن الثامن عشر، وتأثرت بالتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي حدثت في ذلك العصر. هناك أنواع مختلفة من القومية، تختلف حسب المنطقة والزمان والظروف، والمبررات، والأهداف، والوسائل..

«لو تسنى لك الاطلاع على نماذج من الروايات العالمية الحديثة. فان ذلك يجعلك تكتشف أنّ جنس الرواية طريقة تفكير حديثة للتعامل مع ماض لم يفهم!»

إنّ القومية هي الشعور بالانتماء والولاء لأمة معينة، والرغبة في الحفاظ على هويتها وسيادتها ومصالحها. القومية تعتمد على عوامل مشتركة بين أفراد الأمة، مثل اللغة والثقافة والتاريخ والدين،

والأصـــل، والقيـــم، والأهـــداف. تـــرددت إلى ذهنـــي أغنيـــة لبنانيـــة:

«يا نور عينيه رحنا ضحية الحركات الثورية[1]».

****

كان زوج أمـه برغـم المشـاع عنـه طيّبـا مـع الجميـع، ولكنـه كان قاسـياً إلى أبعـد مـا يكـون مـع أهـل بيتـه، إلى درجـة أنـه لم ينـدم مـرة عـلى عقوبـة قاسـية بحـق طفـل، بـل كان يفتخـر أمـام معارفـه أنـه خـير مـن يربيهـم ويتباهـى أمـام العبـاد بأنـه لا يقبـل أن يسـامح أي منهـم عـلى أي خطـأ ولـو كان بغـير عمـد، عقوبتـه لأي واحـد منهـم كانـت تجـري أمـام النـاس، وكأنـه يعـوض خيبتـه بتلـك العقوبـة، ولا يـترك طفـلا منهـم إلا ويخلصـه النـاس منـه، لأنـه يأخـذ بـه ضربـاً حتـى يدميـه، بـل وينفعـل بهسـتيرية كأنـه لا يـضرب ولـدا صغـيراً، إنـما يـضرب رجـلا بالغـا إلى حـدّ التـمادي بالكـسر. ولا يفلـت أحـدٌ مـن يـده، ولم يعـرف أن تلـك القسـوة جعلتهـم ينفـرون منـه، وعندمـا يكـون في البيـت تخلـو الغرفـة الوحيـدة مـن الأولاد والبنـات. يتوزعـون هاربـين دون أن يسـال عنهـم أحـد، البنـات تعـودن الخدمـة في البيـوت، والأولاد كل منهـم في مـكان، حيـث لم يفلـح أي منهـم في مدرسـة «الأول» تعـود أن يـسرق مـن البسـاتين بعـض الثـمار ويبيعهـا

(١) أغنية من الحان وتأليف الفنان اللبناني زياد رحباني

بثمن بخس في سوق الخضار، «الثاني» ينزل النهر ويغيب بين صيادي السمك يعود للبيت بما يجودون به عليه، و»الثالث» يسمونه بالثعلب سارق الدجاج من أقنانها، ويعود بما حصل عليه إلى أمه، دون أن تسأله من أين لك هذا؟؟

******

لم أكن مستعداً أن أكون من بين الذين يقلبون الحقائق، وخاصة عندما يتعلق الأمر بخيانة الوطن، وليس لدي أي استعداد بتخليص أي متورط بها، ولا أقبل في ذلك الشأن أي وساطة مهما كانت، فالقانون فوق كل شيء، وأمقتُ كل من يقوم بإخفاء الأدلة والبراهين، لأيٍّ كان، فالذي يرتكب جريمة مهما كانت عليه أن يقبل ما سيؤول إليه جرمه، وفي الوقت نفسه لا أقبل أن يلبس أي بريء أية تهمة مهما كانت. وأشددُ إلى حدّ المبالغة في عقوبة كل من يخفي أو يضيف أدلة غير حقيقية بحق أي متهم. فأنا على يقين أنّ من يزرع الشر لابدّ من أن ينال جزاءه، ومهما كان. شددت العقوبة على المقدم «فلان» الذي كان من بين المحققين الذين حاولوا التجاوز على القانون بتبرئة بعض المتهمين، وخاصة الذين ثبت عليهم التعاون بالدلائل المادية الملموسة مع أي جهة من الجهات، وحسبتها خيانة لا تغتفر. خاصة مع من

كشف بعض معلومات عن التصنيع العسكري الخاصة منظومة الصواريخ الجديدة، أو الذي كشف عن تحركات، وأماكن تواجد الرئيس أو أية معلومة تخص الشأن الداخلي حتى ولو كان ذلك المتهم كان أحد اقربائي، ولن أقبلها حتى من شيخ العشيرة بالتوسط لصالحه، وإن ذهب القانون بالخائن إلى الإعدام.

******

طلبني في اجتماع عاجل وشرح لي ما بلغهُ من تعليمات جديدة من «القيادة العليا» حول الأوامر الجديدة التي تخص منصب رئاسة «جمهورية العراق» وقد استحدثت بنوداً سرية خاصة مفادها أن الإستراتيجية تتطلب إعادة النظر في «بروتكول القيادة» الخاص بالعراق الجديد. ينص ذلك أولا على تنحية «السيد الرئيس» بطريقة سلمية، وبقبوله تسليم الزمام سلميّا، أمام الإعلام، ويجري التمهيد إلى انتخابات صورية يشارك فيها جميع أفراد الشعب لإضفاء مشروعية على الرئيس الجديد.

وأن أكون المرشح البديل عنه بدعم منه، ويتمّ فوزي في الانتخابات الصورية التي سوف تجري في أقرب فرصة بعد توقف الحرب العراقية الإيرانية، وسيكون هو في منصب أعلى، غير رسمي يمتلك الحصانة

الشـاملة مـع جميـع أفـراد عائلتـه.

بقـيّ يـشرح لي ذلـك عـلى الرغـم مـن أني اعترضـت عـلى ذلـك بشـدة، ويؤكـد لي بأنــه لا يختــبرني، وكنــت أؤكــد لــه أننــي لــن أكــون الرجــل المناسـب لذلـك المنصـب، فالرئاسـة تحتـاج إلى رجـل أكثـر حزمـا منـي، وليسـت لـدي القـدرة في أن أكـون الرجـل الأول في البـلاد، وطلبـت منـه أن يعجـل بحضـور منـدوب عـن القيـادة العليـا، ويناقشـهم حـول ذلـك الشـأن، ويعلـن لهـم اعتـذاري عـن القبـول بـأي منصـب وأن «القيـادة العليـا» إن كانـت تريـد ألا يضيـع البلـد مـن يديهـا، بعـد أن خـرج العـراق مديونـا بسـبب الحـرب مـع إيـران[١].

كانــت التعليــمات توافيــه أن يغــير بيديــه رجــلاً مــن رجالهــا لا يختلــف عنهــم بولائــه عنــه، اســتعدادا للتحــركات المريبــة التــي كانــت تــدور في الفلـك العالمـي التـي تـودّ إخـراج العـراق مـن الحضـن الشرقـي إلى الحضـن الغـربي، بـات الأمـر لا منـاص مـن عـدم تنفيـذه، وأنـا عـلى يقـين أن ذلـك سـوف يحـدث.

ولا أعـرف كيـف صارحنـي بـما جـاء، وأنـا مـن يعرفـه لا يقبـل بمثـل هكــذا امــر، في مــرة اقتضــت اقتراحــاً حــول إيجــاد شــبيه لــه، لم يحتمــل

(١) قبل حرب الخليج الأولى كان الدينار العراقي يساوي ثلاثة أمثال الدولار الأمريكي.

ذلـك، لأن وجـود الشـبيه سـوف يعنـي مشـاركته السـلطة بصـورة مؤقتـه، وهــو لا يحتمــل ذلــك لســاعة أو لدقيقــة أو حتــى لثانيــة.

وبالفعـل بعـد شـهر مـن ذلـك قـام بانقلابـه الأبيـض عـلى «بروتكـول القيـادة العليـا» وقـام بإصـدار قـرار بأقصائـي مـن جهـاز المخابـرات العامة، وتعيـين المعـاون «فاضـل صلفيـج العـزاوي»[1] خلفـا لي، ومعه قـرار ترفيعي إلى وظيفـة غـير فاعلـة! كمستشـار أول لشـؤون الأمـن في رئاسـة الجمهورية. وبدخولـه الكويـت قلـب المعادلـة، وتحـدد مصـير جديـد يخـص مسـتقبل العـراق. ونـأى بنفسـه بعيـدا، ليعـزز منصـب القائـد الـضرورة، ويفـرض بقـاءه عـلى القيـادة العليـا.

******

في مجمـل تاريخـه النضـالي اعتمـد سرّا وعلنـاً عـلى أخوتـه الثلاثـة، الـذي تـرأس كل منهـم فريقـا معتمـدا فيـه عـلى أبنـاء عمومتهـم المقربـين، حيـث صلـة القرابـة هـي المتحكمـة بكتـم الأسرار.

---

(١) فاضـل صِلْفيـج العـزّاوي (ولـد في سـنة ١٩٤٤) مسـؤول ودبلومـاسي عراقـي، عُـينّ يـوم ١٢ كانـون الأول سـنة ١٩٨٤ معاونـاً لمديـر جهـاز المخابـرات العامـة العراقيـة لشـؤون العمليـات، ومُكلّفـاً بالعمـل الاسـتخباري خـارج العـراق، ثـم عُـين مديـراً للمخابـرات بالوكالـة عـدة أشـهر، وعُـيّن محافظـاً لمحافظـة صـلاح الديـن في كانـون الأول سـنة ١٩٩١ تربطـه صلـة القرابـة ابـن خالـة الرئيـس، ابـن السـيدة «هيلـة خـير اللـه طلفـاح» أخـت «صبحـة خـير اللـه طلفـاح».

كنتُ أنظر إليه بعين المحب المخلص، المعجب بشخصه الشفيف الذي تغلب عليه هيئة الطيبة حيث كان يصغي جيدا لمن يتكلم معه. عرفته وبقيت أكنُّ له اعترافاً حقيقياً بأنه أيقونة يجب أن تكون في محلها.. لأنه يتمتع بموهبة القيادة، كما عرفت فيه أنه متشكك ومرتاب من كل الذين من حوله، لا يأمن أحدا على الاطلاق، وتعود أن ينام وبين أصابعه مسدس محشو جاهز للإطلاق.

******

أحيانا بعض الاحتكاكات الوظيفية تأخذ بين بعض الموظفين طابعا شخصيا، وتجعل منهم يميزون بعضهم البعض جيدا، وهذا ما حدث مع أحد الزملاء، واسمه «**فلان**» عرفته عندما تسلمت مديرية الأمن، وكان ضمن الكادر الذي كان في إمرتي مباشرة عندما كنت في مديرية الأمن العامة، عهدته ضابطا جيداً، لكنه غير منضبط في تنفيذ الأوامر إذ يأخذه الانفعال والمبالغة في تنفيذها. فكان قاسيا إلى درجة الهستيريا خصوصا مع الذين هم أقل منه رتبة، قليل الاحترام، ينفعل مع كل مشتبه حدّ القسوة الهمجية، لا يكاد يفرق بين مشتبه، وبريء فالكل عنده يجب ان يعاقب، ولا يفهم من التحقيق إلّا الإيذاء بأقسى ما يستطيع. سبق لي أن وبختـه أكثر من مرة لسوء خلقه، ولكنه لم يرعَ

غضبـي عليـه، حتـى وصـل بـه الأمـر شـكاني بحكـم صلتـه إلى رئيـس المخابـرات الـذي كان جهـاز الأمـن العـام مـن مسـؤولياته، وتـمّ نقلـه إلى الدائـرة المقربـة منـه، وسـلمه مسـؤولية إحـدى المديريـات المهمـة، وبـات الرجـل أكثـر تحديـاً لي، وصـار يفتخـر أمامـي بأنـه المتديـن الـذي يقيـم الصـلاة ويـؤتي الـزكاة، ويعيـب علـيّ عـدم التزامـي. لم يكـن محايـداً، ولم ينـه ولاءهُ الشـخصي لمعتقداتـه الباطنـة، ولم يجعـل مـن الوظيفـة تصـبّ في مصلحـة بلـده، وباتـت مسـيرته الروحيـة تعطـي لونـا واتجاهـا غـير الاتجـاه الـذي تتطلبـه دولتـه. رجـال الدولـة ملزمـون بقانـون دولتهـم. الدولـة تتطلـع إلى تلـك المنافـذ بانتبـاه، الموظـف العامـل للدولـة يبقـى محافظـاً عـلى شـفافيته. كالشـبح غـير المرئـي فـأي لـون يـبرزه، ويجعلـه مرئيـا، مكشـوفا، ولمـا نقلـت إلى الجهـاز، تابعتـه جيـدا، ووجدتـه لا يصلـح إلّا لوظيفـة مدنية، فتـم نقلـه، وعندمـا تركـت المنصـب عـاد للتوسـط لـدى «بـرزان» وبـدوره وجـه الأمـر لأخيـه «سـبعاوي» لإعادتـه كمحقـق إلى جهـاز المخابـرات، واليـوم أراه هـو الـذي يتـولى بعـض التحقيقـات معـي.

******

دراســةُ التاريــخ كانــت شــاغلي الأول والأخــير في أغلــب مراحــل دراسـتي، جميـع الـدروس التـي كنـا نتلقاهـا تؤكـد عـلى الـولاء للقيـادة

أكثـر مــن الانتـماء إلى الوطــن، وبالتــالي الــولاء إلى القوميــة ومــن ثــم إلى الديــن.

لم نكــن نعلــم الســبب الــذي جعلهــم لا يكــررون علينــا محــاضرة في مــكان واحــد، يحــددون مواعيــد مختلفــة في أماكــن مختلفــة كجــزء مــن التدريــب بغيــة التعــوّد عــلى الدقــة في وقــت الحضــور، بعضهــا أمكنــة بــين أزقــة مكتظــة بالســكان لــن يصلهــا أحــد بســهولة مــا لم يســتعين بخارطــة موســكو الســياحية.

لم يكــن يســمح لنــا التعــرف عــلى أعضــاء مجموعتنــا، وكل مــرة يحــضر إلى الــدرس الجديــد مــع مجموعــة جديــدة، تــم تقســيمنا إلى مجموعــات متداخلــة، كل فــرد يديــر شــؤون نفســه بنفســه حيــث لا أحــد يعتمــد عــلى أي زميــل. كــما لم يســمحوا لنــا التكلــم بالعربيــة، والــذي يفوتــه درس لــن يســتطيع أن يحصــل عــلى الــدرس التــالي، لأن كل شــخص يبلغونــه بواســطة ورقــة مكتــوب عليهــا الزمــان والمــكان، بموعــد محاضرتــه وعليــه أن يبتلــع تلــك الورقــة، ولا يــترك لهــا أثــرا بعــد أن يحفــظ مــا كان عليهــا. لم يكــن يســمح لنــا بالجــدل حــول أي شيء، الكلمــة الوحيــدة هــي كلمــة «نعــم»، صرت أفهــم مــدى أهميــة تلــك التدريبــات، ولم يكــن يخطــر ببــالي يومــا إني ســوف أكــون مرشــحا مــن بــين الشــاغلين لأحــدى أهــم المراكــز الحساســة في بلــدي،

وإني أتعامـل مـع كادر مـن الخـبرة المتقدمـة في علـم المخابـرات الحديـث. المطابـق لعلـم الشـطرنج، تلـك اللعبـة المخابراتيـة التـي تفـوق بوصفهـا علم نيّـة الإنسـان، اللعبـة يدرّسـها الـروس في جميـع مراحـل دراسـتهم حتـى الجامعيـة تتفـرع مـن درس الرياضـة والرياضيـات. درس العقـل وتنشـيطه، جـزء مـن درس الرياضيـات وإعطـاء النتائـج والاسـتعداد لوضـع النقـاط عـلى الحـروف. اللعبـة التـي أحببتهـا، ومـا زلـت أتقنتهـا بعشـق.

في الأيـام الأولى مـن فـترة إقامتـي كنـت أرغـب بالقيـام بالعديـد مـن الأنشـطة مثـلا زيـارة المعـالم السـياحية الشـهيرة مثـل «الكرملـين» و»الساحة الحمـراء» و»كاتدرائيـة سـانت باسـيل» و»العديـد مـن المعـالم الشـهيرة الأخـرى». كنـت قـد سـمعت مـن زملائنـا في السـفارة بزيـارة حديقـة جوركـي: التـي تعتـبر هـذه الحديقـة مـن أشـهر المعـالم السـياحية في موسـكو. «التجـول في المسـاحات الخـضر والتمتـع بالأجـواء الطبيعيـة». أو جولـة في حديقـة «تشايكوفسـكي»: التـي تعتـبر مـن أجمـل حدائـق العـالم. مسـاحات خلابـة وأجـواء طبيعيـة. ثـم الاطـلاع عـلى مقتنيـات متحـف «تريتياكـوف» الـذي يضـم لوحـات فنيـة وأثـاث وأدوات منزليـة. ثـم زيـارة متحـف «بولشـوي» الـذي يضـم مجموعـة كبـيرة مـن المعروضـات التفاعليـة الحديثـة، مثـل شاشـات اللمـس وألعـاب الأطفـال.

في البدء أحسست بالاختناق، كأنما كنت مراقبا من قبل الشعب الروسي قاطبة، وليس من المخابرات الروسية التي تعد عليّ حتى الأنفاس، لإني كنت من الكادر المتقدم في حزب البعث، ومن بين المقربين من العائلة الحاكمة. لكني تأقلمت مع الحال الجديدة، وبعدها وضعت خطة مكشوفة لكي أصل إلى الإحساس بالنشوة والاطلاع على العلامات الهامة الظاهرة في الثقافة الروسية. كنت لا أريد أن أكون الماكث بين جدران السفارة بحجة الخوف من الرقيب، فأنا لم التقِ بمعارضة روسية، ولا بعميل من الجانب المعادي، بل على العكس كنت موفدا بشكل رسمي من حكومتي إلى حكومتهم، وتحت الرقابة المشددة.

لم ألتفتْ أول الأمر إلى الأهمية من تلك الدورات التدريبية التي تلقيتها على أيدي أساتذة كبار متمرسين تابعين للدائرة الثالثة لمديرية عمليات الموظفين الميدانيين، والتي تختص بأعداد الكادر المتقدم إلى المناصب الرفيعة في بلدانهم. التي أنشأت مباشرة لهيئة الأركان العامة (الأركان الميدانية للجيش الأحمر). فلم يكن يسمح لي الاطلاع على طبيعة هيكلتها، ولكني كنت أثابر في سبيل معرفة ذلك.

وعلمت بأنها تابعة إداريًا إلى الإدارة الثالثة لمديرية عمليات

الموظفين الميدانيين الذين يتوزعون في مفاصل الدول الشرقية، التي باتت تحت سيطرتها وتم تحويل أنظمتها إلى جمهوريات (العراق، سوريا، مصر، ليبيا، اليمن، إيران). وتلك الدول شهدت انقلابات ضد بعضها البعض كجزء من إعادة تنظيم كبيرة للجيش الأحمر، وأن «الإدارة الرابعة» قد وضعت مباشرة تحت سيطرة مجلس الدفاع عن المصالح الإستراتيجية للدولة الروسية (GKO). كعصب رئيسي للاستخبارات الأجنبية التابعة للقيادة السوفيتية، وتعمقت جذورها في تلك الممالك، وبقيت القيادة العليا في «روسيا» حتى بعد ان تفكك «الاتحاد السوفياتي».

بقيت المعلومات عن تلك الدائرة ضبابية، ولم يتم الكشف عنها خلال الحقبة السوفيتية، ولكن الوثائق المتعلقة بها أصبحت متاحة في الغرب مؤخراً، وجدت نسخة في «مكتبة الاعداد الحزبي» مذكرات «جورج أغابيكوف» المنشق الأول لعام ١٩٣١، والتي وصِفَتْ بالتفصيل في كتاب السيرة الذاتية «كنت عميل ستالين» بقلم «والتر كريفيتسكي»، الذي كان واحدا من بين أكبر ضباط مخابرات الجيش الأحمر على الإطلاق.

ولم أكن أتوقع العثور عليه في مكتبة الإعداد الحزبي ببغداد

خـلال تواجـدي فيهـا بغـرض قضـاء الإجـازة نصـف السـنوية، كان كتابـا مهـما تحـدث عـن الحـدود السريـة لمجتمـع المخابـرات، مـن خـلال «البيريسـترويكا» إعـادة بنـاء الدولـة الروسـية الجديـدة، ثـم عثـرت عـلى نسـخة مـن كتـاب «فيكتـور سـوفوروف»، الضابـط الـذي انشـق وفـرّ إلى بريطانيـا في عـام ١٩٧٨ والـذي كشـف عـن تجاربـه في الجيـش والمخابـرات السـوفياتية. حيـث قـال:

- «حتـى الأمـين العـام للحـزب الشـيوعي للاتحـاد السـوفيتي في حـال أراد دخـول مقـر المديريـة كان يخضـع لفحـص أمنـي دقيـق».

****

ضقـتُ ذرعـا بالتـمادي، حتـى حملـت تسـجيلات الهاتـف إلى «السـيد الرئيـس» بصـوت أخيـه «بـرزان» تولـد ١٩٥١، وجدتـه يهـدئ مـن روعي، وأقسـم ليّ عـلى أن يتخـذ معـه الإجـراء المناسـب.

****

كنـتُ أراهـم بيقـين جوقـة مـن الضبـاع، وهـي تجـول جائعـة في الـبراري باحثـة عـن أي لحـم يـؤكل، سِـمَتُها الهجـوم والغـدر، وليسـت مباليـة بشراسـة مـن أمامهـا. طبيعـة الضبـاع تتحـدى حتـى الأسـد مجتمعـة، تـدور حولـه، تُنـاوره حتـى تتعبـهُ، تُغافلـه، وتقطـم خصيـة الأسـد. منـذ البدايـة

عملت بينهم بحرص، كي لا تدور عليّ الدائرة. توخيتُ الحذر قدر المستطاع والحرص من أدواتها الجاسوسية.

طلبت نسخة من «جهاز عرض الوثائق والصور» وتمّ وضعه تحت تصرفي كمدير عام، وبذلك أصبحت أطلع يومياً على كل مستجد يُحَمَّلْ على الأرشيف بما فيها إضبارتي الشخصية، وبدوري اطلعت على كل ما كتب عني، من تقارير، وحددت المحب من الكاره.

ثم حرصتُ ألا يكون المشغل لنسخ صور «الميكروفيلم» مقتصرا على غرفة الأرشيف، طلبت أن يتصل بجهاز مثله قرب مكتبي، (تم استيراد أحدث الأجهزة التي تخزن الوثائق والمستندات على شرائح رقيقة، من أجل الحفاظ على محتويات خزانة الملفات)، ثم عملت على الاحتفاظ بصورة من محتوى الأرشيف الكامل طول خدمتي، وبعد أن اطلعت على اسرار تشغيله جيدا، وللتحوّطات عملت نسخة مطابقة عن الأرشيف دون علم أحد، فكان السرّ الذي لم يعرفه أحد. خوفا عليه من التلاعب، خاصة قضايا تخص المدراء الذين سبقوني بعد أن علمت ثمة ملفات تحقيقية اختفت، تخص بعض المتهمين الأبرياء الذين ظهرت براءتهم بعد أن ارتجلوا بحقهم الإعدام دون أية سياقات قانونية. احتفظت بنسخة من «الحقيبة البرتقالية» التي فيها

جميـع الأضابـير السريـة الخاصـة بخطـط التصفيـات التـي جـرت سـابقا في الداخـل أو الخـارج، وحفظهـا في مـكان خـاص.

******

كتبـي التـي كتبتهـا كانـت تسـتشرف إطلالتـي الشـخصية عـلى خريطـة العـالم السياسـية، تبلـورت مـن رؤيـة موضوعيـة لحقائـق لمسـتها مـن تبايـن المسـاحات المُتنـازع عليهـا مـن ممتلـكات الغـرب العلنيـة، وممتلـكات الشرق السريـة، والمشـتعلة بالحـروب الباطنـة والظاهـرة. ضحيتهـا الإنسـان المثقـل بالأيدولوجيـات التـي تُكبّـل عقلـه، نزاعـات باتـت واضحـة بـين كل منهـما، حيـث باتـت دول المنطقـة ممزقـة بسـبب النفـوذ. وكل مـرة تبقـى المسـاحة التـي يحتاجهـا الطرفـان موضـع نـزاع وانقلابـات وخيانـات ضـد إنسـانية الإنسـان، نزاعـات تشـعل حروبـا ضروسـاً عـلى أمكنـة النفـوذ بأيـة وسـيلة، وبـأي ثمـن وإن كان ذلـك بالدمـار الشـامل، يتـم إشـعالها بالنزاعـات، لتبقـى قلقـة، غـير قابلـة للاسـتقرار، كل منهـما لـه مخالـب مخابراتيـة، وأنيـاب تجسسـيّة لا تفلـت جسـد الضحيـة، والضحيـة لا حـول لهـا ولا قـوة سـوى أن تكـون مستسـلمة للانقلابـات والثـورات التـي تهزهـا هـزّاً دون رحمـة، ولا قيمـة لاي شـعب مـن الشـعوب امـام تقـدم بعضهـما عـلى بعـض، كل انقـلاب يعـود بالبلـدان الضحيـة إلى الصفـر، ومـا أن يبـدأ

المكان بالاستقرار حتى يهزه انقلاب آخر، وتكون الدائرة التي مركز قطرها صفر هي النقطة المكان الواحد، العالم من حولها يزهر، حيث تبقى النقطة نقطة.. ضفتان لا تلتقيان، ضفتان تسرق إحداهما –مجازاً– الماء الجاري من الأخرى، ثروات هائلة.. حروب اندلعت لتفكيك الشرق الأوسط بعد ذوبان مركزية الدولة العثمانية، بقيت بطانتها وركبت موجتها روسية القيصرية مقابل الإنكليزية القيصرية.. أشعلوا فتائل النزاع الديني بالاشتراكية الشيوعية، وأشعل ضدها الطرف الثاني فتائل القومية والعرقية، تم استعمارها بعد اكتشاف البترول، ودار الصراع حول الدجاجة التي تبيض ذهبا.

******

رأيت أن حلقة الماء العنيفة قد سحبتني إلى عمق اللجّة، باتت تلفني لفاً سريعا ولم أستطع المقاومة، إذ قادتني إلى العميق المعتم، إلى الموت المُحتَّم.. لا حول لي ولا قوة، كان الخلاص مستحيلا، باتت أضلاعي مخلخلة من الركلات، بالكاد أتنفس.. حتى بولتي صارت تسحّ وتنزل مني، رغم مقاومة حبسي لها، وأخذت سيلها يسبب لي حكّة أسفل ظهري، كأنما بقيت تحتي ولم تجد منفذا لتخرج إلى خارج القفص. لم أستطع أن أطول أسفل عجيزتي، لأحكّها بأظافري. كنت في

جلسة قرفصة واحدة لا أستطيع تغييرها بفضل ضيق المكان، وصار الخدر البغيض يتسلل إلى العمود الفقري، جعلني اشعر بألم من نوع آخر جراء عدم الحركة. طلبتُ المساعدة من الحراس الذين يمرون بالقرب مني فلم يمتثل لي أحد. بحجة صرامة الأوامر بخصوص الداخلين إلى هذه العلبة الضيقة، إذ تمنع الحركة نهائيا، وعندها تتوقف فعاليات الإنسان، ويصاب بالهوس، وتلقائيا يصير بحاجة إلى الحركة، بعضهم يدخل حالة هستيريا من الصراخ، والبكاء، ويعلن استسلامه دون الحاجة إلى ضرب، حيث يمتثل إلى كل ما يطلب منه. إضافة إلى حاجة الإنسان إلى دخول الحمام. فيفرغها في مكانه، وتزيد عليه الرائحة ويهجم عليه الذباب وبمرور الوقت يتحول غائطه إلى أداة ضغط أخرى كلما ازدادت النتانة من حوله، حيث تنحسر إنسانية الإنسان، ويتحول إلى جيفة تستحق الطمر، وإني لم أستطع أن أشمّ أي رائحة، ولم أفكر بمراجعة أي طبيب على الاطلاق. على الرغم من جولاتي إلى معظم دول العالم المتقدمة في الطب، ذلك العيب الذي أخفيته لم أدرجه بين مهام حياتي. وبرغم قربي من باب التواليت، لم تضايقني رائحتها بقدر ما ضايقني احساسي بالقهر، والذل الذي يتمادون به عليّ، بغيّة تحويلي إلى كومة أنقاض بعد أن كنت مفخرتهم بين الشخصيات الاعتبارية المرموقة في العالم. يوم مثلت بلدي أحسن

تمثيل كنت فيه من بين أكثر المعتزين بمكانته، أصبحت لي علاقات فاعلة مع أغلب مدراء أجهزة المخابرات في العالم، كما استطعت أن أعزز تلك العلاقات التي أثمرت تعاونا أضاف السمعة الحسنة لبلدي، كنت أستحق الاحترام، فكيف أوصلوني إلى هذه النقطة التي لا يستحقها إلا خائن.

كنت أستطيع الرؤية من خلال الفتحة في سطح غرفة الرياضة وأن أرى كل من يأتون به، ليدخل إلى التواليت، يأتون به من زنزانته معصوبا ويرفعوها عنه عند دخوله إلى الحمام، ومن بعد الانتهاء يعودون إلى عصبها حتى يعودوا به إلى زنزانته، وتكون مرة واحدة في اليوم. وقد وصل التمادي إلى درجة جاءوا بكل من كانت تربطني به علاقة، وخاصة الذين رفضوا تقديم شهادتهم زورا، كنت أعرف ذلك جيدا.

احضروا بكل عنف جميع أصدقائي الذين أسامرهم وخاصة من يؤيد براءتي من تهمة الخيانة، وأجبروهم بالضرب والإهانة على البول فوق الغرفة لتسيل البولة فوق رأسي، رفعوا لهم العصبة المعتادة عن أعينهم، ليروا بعيون مفتوحة ماذا حلّ بصاحبهم، وتنكسر في داخلهم تلك النظرة، كانت عيناي مغمضتين تشجعهم على فعلها لدفعهم

بعيدا عن منطقة الأذى، أعلم بأنها نظرات وديعة، كأنما تشجعني على التحمل، «فما من أزمة مرّ بها الإنسان إلاّ وعبرت»، ذلك الأمر المباغت، الذي صدر إليهم سوف يبقى الفعل الذي يوازي قمّة الإحساس بالدونية.

لم يكتفوا بذلك جاءوا بعدها ببعض الضباط الذين اشتغلوا معي والذين كنت أعتمد عليهم كمتفانين في مهامهم، وصدر الأمر إليهم «أن يفعلوها فوق رأسي». اختاروهم عشوائيا بدءا من سكرتيري القديم، حتى السائق. كأني كنت أشجعهم على فعلها، بدلاً من أن يؤذونهم بعد ان اوحي لهم بغفراني مبدئيا لما يفعونه بي. «الأوامر هي الأوامر» اللعنة التي لا تنتهي، أوامر تعمدت المبالغة بالإيذاء.

****

تغيرت التسمية من «مديرية المخابرات» إلى «رئاسة المخابرات»، ومن ثم الى «جهاز المخابرات»، وبقيت الجهة المسؤولة عن جمع وتحليل المعلومات ذات الصلة بالأمن القومي والتهديدات الخارجية. الجهاز الرئيس لِلْمُحَافَظَة على أمن الدولة من الجهات الخارجية، يتكون من تسع مديريات كبيرة كل واحدة تمتاز بتخصصها الذي لا يرتبط بالأخرى، وكل واحدة تفرعت عدة وحدات. في السابق كانت

تعـرف بالمديريـة الثالثـة «مديريـة المعلومـات» المختصـة بجمـع وتحليـل المعلومـات وتبعتهـا المديريـة الرابعـة التـي كانـت تضـم أعضـاءً سريـيّن اندمجـوا مـع الدوائـر الحكوميـة والسـفارات والنقابـات وأحـزاب المعارضـة في الخـارج.

مـن أجـل أن تبقـى الدولـة القويـة بعلاقاتهـا الطيّبـة مـع كافـة دول العـالم، وخاصـة الـدول المحيطـة، العلاقـات الطيبـة توفـر الأجـواء المناسـبة للتنميـة التجاريـة، والدبلوماسـية المرنـة، وهـي الجـزء الحيـوي في تمريـر المصالـح المشـتركة مـع العـالم. خاصـة مجسـات التحسـس مـن الاخطـار المحدقـة باسـتقرار البلـدان، وغالبـا مـا يبحـث الـشر عـن منفـذ عـبر الحـدود للدخـول إلى تلـك الأهـداف. وظيفـة المخابـرات التحسـس بغيـة حمايـة البلـد مـن التخريـب، وعـادة مـا يكـون التخريـب باسـتغلال دول الجـوار التـي تكـون علاقتهـا هشـة، وتتحـول إلى بـؤرة، يجـب مراعاتهـا وإقامـة علاقـات طيبـة معهـا، ولكـوني كنـت رئيـس الجهـاز، لم أكـن أفكـر في أن أكـون عـلى رأس النظـام، عـلى الاطـلاق، فالدولـة دولتـي وأنـا منهـا، وهـي منـي هـي في داخـلي وقلبـي، لذلـك أنـا حريـص عليهـا، وكلـما سـند المواطـن رأس نظامـه ارتقـت دولتـه بـين الـدول، كنـت أعلـم أن هنـاك بطانـة عاقلـة ومثقفـة وواعيـة تعـرف دورهـا خـارج الدائـرة المحيطـة برأس النظـام، أهـم مـن البطانـة القريبـة منـه التـي سـندته وعـززت قوتـه، ينبغـي

عـدم السـماح لهـا في تقريـر المصـير، ويجـب إزاحتهـا عـن إدارة الدولـة في المرحلـة القادمـة، غـير الحاصلـة عـلى المؤهـلات الدراسـية وإن كانـت قـد دخلـت الجامعـة بشـكل صـوري، وحرصهـا عـلى نيـل الشـهادات بالنفـوذ. سـبق أن أوصيـتُ بـأن تذهـب المناصـب بعيـدا عـن أولئـك، وخاصـة دائـرتي.

لكـن «السـيد الرئيـس» بقـيَ مهتـماً بالـولاءات التـي تخـص أمنـه أكثـر مـن الـولاءات التـي تخـص العلاقـات المتعـددة الأطـراف مـع الـدول الأخـرى والمنظـمات والهيئـات الإقليميـة والدوليـة، وبتمثيـل لائـق للدولـة في المؤتمـرات والاجتماعـات والنـدوات الخارجيـة.. كنـت أنافـحُ لأجـل ذلـك حتـى يسـاهم في حمايـة المصالـح الوطنيـة والأمـن القومـي والسـيادة والاسـتقلال والوحـدة الوطنيـة للدولـة، والدفـاع عـن حقوقهـا ومواقفهـا في القضايـا الدوليـة والإقليميـة.

«تهمنـي الواجهـة التـي يجـب أن تكـون مقنعـة بدعـم المواطنـين والمغتربـين والمسـتثمرين والسـياح والطـلاب والمبتعثـين والمـرضى والمعتقلين والمفقوديـن والمهاجريـن واللاجئـين الذيـن يتواجـدون في الخـارج، وتقديـم الخدمـات القنصليـة والقانونيـة والإنسـانية لهـم. ودائـما عـلى احتـكاك مبـاشر بمتابعـة المفاوضـات والاتفاقيـات والمعاهـدات والمذكـرات

والبروتوكـولات والتفاهمـات والمبـادرات والمشـاريع المشـتركة مـع جميـع الـدول والمنظـمات والهيئـات الخارجيـة، والحصـول عـلى كافـة التصديقـات والتوقيعـات والتبـادلات اللازمـة لهـا، ومتابعـة تنفيذهـا وتقييمهـا. ليتـم الاتصـال مـع الواقـع في جمـع وتحليـل وتقييـم وتوثيـق ونـشر المعلومـات والبيانـات والأبحـاث والتقاريـر والإحصـاءات والدراسـات والمـؤشرات المتعلقـة بالسياسـة الخارجيـة والعلاقـات الدوليـة والإقليميـة والثقافيـة والاقتصاديـة والاجتماعيـة والإنسـانية، والبيئيـة، والتنمويـة، والتعليميـة، والصحيـة والعلميـة والتكنولوجيـة والتاريخيـة والحضاريـة والفنيـة والرياضيـة والدينيـة والإعلاميـة والأمنيـة والقانونيـة والقضائيـة والحقوقيـة والإنسـانية والمدنيـة والعسـكرية والمخابراتيـة والمهنيـة والنقابيـة والحزبيـة والمجتمعيـة والشـعبية والعائليـة والشـخصية والفرديـة.. الـولاء للوطـن مـن بـين اهـم الـولاءات في حيـاة الموظـف، وكنـت أؤكـد أن الموظـف يخـدم بـلاده بـكل مـا يمتلـك مـن نفـس». عـلى الرغـم أن أولويـات «السـيد الرئيـس» باتـت تمتـين جـدار الحمايـة مـن حولـه، فهـو منـذ طفولتـه قـد نشـأ بـين أطـراف متنازعـة جعلتـه لا يبيـت في مـكان واحـد ليلتـين متتاليتـين، ولم تسـتطع أن تنـال منـه جهـة لأنـه لا يكشـف عـن نوايـاه، وقـد بـرع في المهمـة التـي أوكلهـا لـه «البكـر» في عامـي ١٩٦٤م عندمـا سـلمه مسـؤولية جهـاز «حُنـين» الخـاص بأمـن الحـزب، وبقـيَ بمسـاعدة أخوتـه حتـى ١٩٦٨.

طـوّره ليشـمل الأمـن الداخـلي للدولـة وسـميَّ بِـ «الجهـاز الخـاص» في عام ١٩٧٣ حتـى محاولـة انقـلاب «مديـر الأمـن العـام ناظم كـزار»[1]، ممـا جعله بعـد ذلـك القيـام بتغيـيرات جذريـة حيـث عزل «سـعدون شـاكر» وتسـليم المهـام إلى أخيـه «بـرزان». تغـير الاسـم إلى «جهـاز المخابـرات» يـوم ٢٦ كانـون الأول سـنة ١٩٨٣، وارتبـط مبـاشرة بمجلـس قيـادة الثـورة، ومـن ثـم فيـما بعـد تحـول ارتباطـه برئاسـة الجمهوريـة، وتقلصـت صلاحيـات منصـب «المديـر العـام لجهـاز المخابـرات» بعدمـا ارتبـط بمكتـب سـكرتير الرئيـس.

******

ربـما بعـد أن مـضى اليـوم الثـاني أو الثالـث مـن احتجـازي في غرفـة الرياضـة، عهـدت الزمـن مـتراخ، حيـث لم أسـتطع أن أعـرف لـه حسـاباً كيـف مـضى عـليَّ الشـهر، أو الأسـبوع، أو اليـوم، أو السـاعة.. فاجـأني «فـلان» بفتـح بـاب غرفـة الرياضـة وهـو يهـمّ لإخراجـي منهـا، ولم يكـن بصحبتـه أحـد، إذ أطفـأ أضـواء الممـر، وقـام بنـزع قوابـس الكامـيرات

(١) ناظـم كـزار لازم (١٩٤٠ - ١٩٧٣)، كان يشـغل منصـب مديـر الأمـن العـام في زمـن الرئيـس أحمـد حسـن البكـر، حـاول بانقـلاب لقتـل الرئيـس أحمـد حسـن البكـر في ٣٠ حزيـران مـن عـام ١٩٧٣ وذلـك بعـد عـودة الرئيـس مـن زيـارة الاتحـاد السـوفيتي وبولونيـا وبلغاريـا، وأعـدم بعـد فشـل الانقـلاب.

التـي يعـرف مكانهـا جيـدا بغيَـة فصلهـا عـن أجهـزة التسـجيل. تنفـس ببـطء شـديد، ثـم زفـر بقـوة، ثـم وضـع يديـه بـين إبطـي، وراح يسـحبني إلى خارجهـا، دون أن أسـتطيع تحريـك أي طـرف مـن أطـرافي، بقيت جالسـا عـلى الأرض، متخـذا وضـع قرفصـة، كنت متخشـبا وكلـما حاولـت الاعتـماد عـلى رجـلي خذلتـاني، ولم تقـدرا عـلى حمـلي حيـث غزاهمـا خـدر مـؤلم.

وجدتـه ينظـر إلي عـلى الرغـم مـن كل شيء؛ وعينـاه مليئتـان بالدمـع، ويتحاشـى النظـر لعينـيّ كأنـه لا يريـد أن يعـترف بـما يخالجـه مـن شـعور. شـعور دفـين لا يريـدني أن أكتشـفه، ولكنـي بقيـت أنظـر إليـه، رغـم وهني، بينـما الأسـى بقـيَ متكدسـاً في عينـه، ويعـادل الهزيمـة والانكسـار اللتـين يشـعر بهـما. بالـكاد اسـتطعت التدقيـق فيـه، رأيتـه في أسـوء أحوالـه، مـع ذلـك حاولـت الابتسـام لـه، كنـت متوقعـا أنـه جـاء ليضـع لي الخاتمـة التـي أتمناهــا، دون أن أكلمــه، أن أردّ عليـه بأيـة كلمـة، كـما يفعـل في تحقيقاتـه السـابقة معـي، كأنـما يقـول لي «ابتسـامتك مؤذيـة».

كان يحمـل معـه هـراوة، لا أدري مـن أيـن سـحبها، وهـذا مـا أكـد لي توقعـي، إنـه لم يكـن في حالـة صحـو، قـد جـاءني بعـد أن وصـل الثمالـة، وقـرر قـراره، وراح يـضرب القفـص الحديـد بـكل قـوة كأنـما يريـد تفريـغ غضبـه.. إلى حـدّ أنـه لا يـكاد يـرى مـا أمامـه كان يـضرب بعيـداً عنـي، بكل

قـوة وبـكل هيـاج؛ وبعدهـا سـكن قليلاً ثـم جثـى عـلى ركبتيـه وراح يجهش في بـكاء مريـر، ولم يكـن امامـي سـوى أن أنظـر إليـه، وأنتظـر ما سـيفعله بي، بعدهـا تنفـس بعمـق ثـم رمـى الهـراوة جانبـا، وغـاب ثـواني قصـيرة ثـم أحـضر صنبـور مـاء مطاطيـاً وراح يغسـلني بالمـاء البـارد، ويزيـح عنـي ملابـسي، بـكل رفـق، وبدافـع أنـه يخلصنـي مما لحـق بيّ مـن أدران. ليـس في نيتـه أن يواصـل تعذيبـي، تعجبـت لتلـك المشـاعر التـي تكتنفـه، سـاعدني المـاء البـارد عـلى إحسـاسي بالانتشـاء بـدلاً مـن الارتجـاف، وبرفـق جعلنـي أنهـض ببـطءٍ شـديد، وسـحب منشـفة وراح يمسـح عـلى رأسي ليخلصنـي مما علـق بي مـن مـاء. كنـت أحـاول النظـر إلى عينيـه مـن جديـد لكنـه كان يتحاشـى ذلـك، ويركزهمـا نحـو الأرض. لم يمـض وقـت طويـل حتـى سـحب مـن الكيـس الـذي كان بجانبـه، وأخـرج لي قطـع غيـارات جديـدة مـع دشداشـة جديـدة، ثـم تركنـي متوجهـا إلى غرفـة الحـمام ليغسـل يديـه، لحقتـه عينـاي، خطواتـه متأرجحـة دلّـت عـلى إنـه لم يكـن واعيـاً، عـلى الرغـم إني كنـت عـلى يقـين أن تصرفـه ذلـك نابـع مـن صراعـات كان يعـاني منهـا منـذ اليـوم الأول لاحتجـازي. واجهـتُ الصعوبـة في ارتـداء ملابـسي، ولكنـي قاومـت برغـم ألم الظهـر، وحاولـت الوقـوف منتصبـا أمامـه. أشـعل سـيجارة ثـم قدمهـا لي، آثـرت ألا أفوتهـا، كأنـما كنـت بحاجـة إليهـا، وقبولهـا بامتنـان.. ثـم أشـعل أخـرى بقيـت بـين شـفاهه. عينـاه دامعتـان

مسحهما بكم قميصه، ثم تنهد وهو يبادرني بالقول:

- «جئتك اليوم لتدفع لي ديناً لي في عنقك».. كنت أصغي إليه، حيث واصل القول: «الهتافات مع أي قضية من القضايا لم تحقق نصراً في يوم من الأيام، ولم تشبع يوما جائعا من الجائعين. كلنا يعرف أن الهتافات كأنما استهلاك لبضاعة لا قيمة لها» كنت أسحب أنفاس سيجارتي بشراهة، وأنتظر منه نتيجة ما يريد إيصالي إليه، بعدما استقرت أنفاسه، يبدو لي أنه في ذروته.. بعدها اقترب مني ليقول همساً «أعاقبك لأنك أكثر من مرة سندته، وأنت من بين أبرز الذين جعلوه يتضخم، أنت في كفّة وعصبته "عصبة الضباع.. التي أوقعت بك شرّ وقيعة" في كفّة.. أظنك تستحق الأكثر، كونك تعرفهم جيداً، ومع ذلك تماديت في دعمهم، ولو أعطوني إياك لكنت فجرت رأسك بإطلاقة واحدة من مسدسي، أنت فككت خطوطاً عديدة كان هدفها تخليص العراق منهم، هل تظن "جوقة الضباع" تعرف معنى الوطن وتجازي الوطنيين، والمخلصين الساعين إلى رفعة البلاد والعباد. جوقة لم تعرف يوما الدراسة والدارسين، خيرهم فاشل، بل فاشل أخلاقيا، تقاسموا الرتب العسكرية، وليس هناك أحد بينهم مؤهل لاستحقاقها، صار الحزب حزبهمُ صار الملك ملكهمُ، وبعلمك وخبرتك كنت لهم الخادم الأمين، وأنت الرجل الأحقّ منهم إلى الرئاسة، قد ضيعتها.

بذلك دمرت بلدك. لعلي أعتبرك من بين أكبر الخائنين». كانت كلماته تعكس أنه يشعر بالأمان، ثم واصل همسه «ساعدتهم في حرق الأخضر واليابس».. كنت على يقين أنه يدرك خطورة ما كان يقوله لي، «لو كان الأمر بيدي لما أبقيت عليك دقيقة واحدة لتعيش».. «أنا لست حاقدا عليك يوم جعلتهم يرشحوني سفيرا في لبنان على الرغم من إنك أردت لي الموت على يد السوريين المتنفذين هناك، وآزرني الله ونفذت بأعجوبة من الفخ الذي كان منصوبا لي إذ تحملت البقاء داخل السفارة، وفوَّت عليهم جميع فرص النيل مني».. تدافعت الكلمات في عقلي قبل أن أخرجها إليه، وخرجت إليه بتجرد: «القيادة هي التي حددت لك لبنان لتجعل من موتك مكسباً سياسياً حتى يؤلب الرأي العام ضد رئيسهم حافظ الأسد».. ضحك ثم قال: «والآن القيادة ذاتها هي من رشحتني للتحقيق معك إلى درجة منحي جميع الصلاحيات بسحقك».. ثم أضاف: «أنت خير من يعلم أنه قتل من العراقيين بحجة الإزاحة من طريقة ما يفوق قتلى الحرب العراقية الإيرانية بما يفوق الضعف.. نظام كلّهُ دم».

لا أعرف كيف اندلعت موجة من البكاء، أخذت تهزّني هزّاً، وجدته يحضنني ويستمر بالقول هامساً: «عصابة الأربع جعلت من وظيفتنا جحيما لا يطاق، اتخذنا شكلهم، حتى شواربنا صارت تشبه

شـوارىهم القـذرة، باتـت الوظيفـة بعيـدة عـن المهنيـة التـي كنـا نأمـل أن نكـون بـشراً حقيقيـين بالعمـل الـذي يكسـبنا الكرامـة، وبسـببهم صرنـا نفقدهـا.

يتباهـون نهـارا بِـ «الإتكيـت والاناقـة»، ولا يتوانـى أحدهـم ليـلاً عـن شرب الـدم كأي حيـوان. حوّلنـا إلى وحـوش مسـعورة، تـودّ الإيقـاع ببعضهـا البعـض حتـى يـأكل القـوي ضحيتـه.

ثـم قـال مواصـلا همسـه: «لا يغرنّـك تـصرفي معـك؛ البـكاء للرجـال المهزومـة، أعلـمْ أني سـوف أكـون مـن بـين أول المتطوعـين بإطـلاق رصاصـة الإعـدام إلى رأسـك.. ليـس بنيّـة التخلـص منـك، إنـما لأخلّصـك منهـم» لم ينتظـر منـي الإجابـة، ولكنـه رفـع صوتـه صارخـا، كأنـه يكشّر عـن أنيابـه: «حـرس.. حـرس»، وخـرج إلى الممـر، موظفـان وقـال لهـما: «عـودوا بـه إلى زنزانتـه».

******

عندمـا يقـرأ الفـرد منـا روايـة «العـرّاب» لِـ «ماريو بـوزو»، تجعلـه يفهـم آليـة عمـل نظـام العصابـات التـي تعتمـد العائلـة، أكثـر، خاصـة منظومـة المافيـا، بطبيعتهـا جهـاز مخابـرات خـارج عـلى القانـون، لكنـه يطابـق عملـه عمـل جهـاز المخابـرات الرسـمي الـذي يمثـل الدولـة، حـلاوة تلـك

الرواية أنها تشرح النظام الداخلي لتلك الدائرة التنفيذية وحيثيات ما يحدث داخل المنظمة السرية، وكيف اتسعت تلك الدائرة الصغيرة إلى حلقات كبيرة، وكيف بدأت المافيات تستحوذ على أشخاص، وتجعلهم زعماء في دولهم، ويكونون مدعومين منها بكل الوسائل، المافيات تعتمد قانون الفائدة مقابل الفائدة، توفر الحماية مقابل أن تأخذ المال، وتسهل الأمر في الزمان والمكان المناسب. من لم يدخل معها في اتفاق «بروتوكول عهد الطاعة» تزيحه عن طريقها دون رحمة، وتبحث عن الذي تعقد الاتفاق، خدمة مقابل خدمة لإدامة المصالح المتبادلة، ودائما تلك المنظمات تدور حول محور، وتتسع لولبيا لتوسع انتشارها.

****

تفرعات العائلة كل واحد منهم يمتلك طريقة ما للتحايل على حكمة «السيد الرئيس» التي تقضي بمحاسبة كلّ من يفتح لنفسه حساباً في بنك أجنبي، وخاصة دائرته المقربة، لأن ذلك الحساب يجعل الشخص يستقل بنفسه، وينأى بعيداً عنه، وهو لا يريد التفريط بأحد منهم، فالاستقلال المادي يفرق ما بينه وبينهم، ويكشف أسراره.. يريد من الجميع أن يجري حساباته التجارية داخل الوطن، وما يحتاجونه،

يكرمهم به من خزينة الدولة. الدولة التي هو مالكها، ولا مال يملكه أحد غيره. لذلك وجدوا في تكديس المجوهرات الغالية ضمانا، وبعضهم الآخر وجدوا أشخاصا موثوقين ليفتحوا بأسمائهم حسابات سرية، وشراء عقارات كالفنادق والمعامل ومشاريع كبرى.

****

لم يكن «السيد الرئيس» يصدر قراراً مهماً دون مداولته مع الحلقة -الخاصة- المقربة منه. استشارة أخوته الثلاثة، تعوَّد أن يناقش بعض قرارته المهمة معهم، يشاورهم، بعدها يسمع إلى مشورة ابن عمه «علي حسن المجيد»، قبل أن يصدر أمره إلى «عبد حمود» يوجهه بمتابعة وتنفيذ الأمر، وصار بعدها يعرضه على صهره «حسين كامل» العريف السابق، الحامل لرتبة فريق ركن، المدلل الذي لديه صلاحيات الرجل الأول، والذي يصدر الأوامر من دون الرجوع إلى أحد، أثقل الأطراف في اظهار الولاء الأَبدي.

كان «السيد الرئيس» يهاتفهم في بيوتهم. وكأنه استفتى الشعب كله، لأجل أن يعرض الأمر على «مجلس قيادة الثورة»، للتأييد. وفي حقيقة الأمر لا يعلم بالقرار لا النائب ولا أي وزير من الوزراء حتى ساعة تطبيقه.

يحتـاج منهـم تأييـد الفكـرة التـي خطـرت عـلى بالـه، ولا يقبـل بمعارضتهـا، مـن أي أحـد كان. يريـد منهـم أجوبـة تتوافـق مـع رغبتـه في صنـع القـرار المناسـب لشـعوره بالزهـو والانتشـاء، فالمصداقـة عـلى قـراره تجلـب لـه سـعادة كـبرى.

قـرارات الدولـة يجـب أن تكـون مدروسـة، وخاصـة تلـك القـرارات المتعلقـة بالعلاقـات الدبلوماسـية، فتلـك العلاقـات تشـوبها التحديـات عـلى أسـاس مشـورة مـن رأس شـخص اتصـف بالحماقـة، والتهـور مثـل «صهـره» عندمـا أشـار إلى إعـدام «بازوفـت»[1] وجعـل الدولـة العراقيـة ترتكـب خطـأ سياسـياً قاتـلاً، تبينـت أثـاره مـع الخطـأ الآخـر الـذي تـم بعدهـا بشـهور بِــ «غـزو الكويـت» بشـكل سـافر، ومناقـض لما كان ينـادي بـه العـراق بالتضامـن مـع الـدول الشـقيقة، يومهـا «سـبق أن قدمـتُ لـه خطـة بتغـير النظـام في الكويـت، افتعـال انقـلاب بنظـام مـوالي بالكامـل للعـراق وليـس احتلالهـا، أو غزوهـا».

بسـبب عـدم تأييـدي لبقـاء القـوات العراقيـة بِــ «الكويـت» زاد الغضب منـي، وبـات التشـكيك حـول رؤيتـي إلى السياسـة الدوليـة، كأنهـا خـارج

---

(١) «فـرزاد بازوفـت» صحفـي إيـراني أسـتقر في المملكـة المتحـدة دخـل العـراق بحجـة العمـل لصالـح جريـدة «الأوبزرفـر» البريطانيـة. أثـار سـلوكه الكثـير مـن الشـكوك، ثـم اعتقلتـه السـلطات العراقيـة عـام ١٩٨٩ وأعـدم عـام ١٩٩٠ بتهمـة التجسـس لصالـح إسرائيـل خـلال عملـه في العـراق.

المنطق، والحكمة، وأن مَن يتحدث بالمنطق الحق يعني الأكثر وطنية منهم، ولا يوجد بينهم من يحب البلاد، «ولائي إلى الوطن أكثر من ولائي لأي نظام»، باتوا على يقين إنه الأقرب إليهم، ويرجح كفتهم، حياته الأهم، وطوع أيديهم، ويستطيعون به قتل من يريدون قتله. كإني الوحيد مستودع الأسرار الخطيرة، الذي يعرف بأدق تفاصيل الدولة، ولم أتلقَّ الرتب العسكرية إلّا باستحقاق، وحسب التدرّج.

******

أغلب ضباط المخابرات عندما يكون لديهم حديث خاص يفصلون قوابس التسجيل الصوتي والكاميرات، ليكون الفعل والكلام بعيداً عن التوثيق، وقد فعلها أيضا المقدم «فلان» في تحقيقه معي.

يصيبهم الملل من رتابة العمل، خاصة بعد المراحل الأخيرة، يصلون إلى حالة اليأس خاصة مع مَن لم يكونوا مقتنعين بأنه مجرم ويستحق المغالاة بحقه إلى حدّ خسارته.

باتوا معي يفهمون الابتسامة، تذهب بهم إلى بطلان الأوامر الصادرة بحقي.

وجدته قد سحب كرسيه وصار أمامي يهمس في أذني كأنه يسرني:

- هل تعلم أن «سبعاوي» عندما حضر إلى حفلة التحقيق التي جرت، حرص على تسجيلها. وقد حمل شريط التسجيل إلى «برزان» الذي اعترض بدوره حول السؤال الذي تعلق بالفنانة «سعاد حسني»، وطالب بعقوبة المنتسب الذي طرح السؤال عليك، بغية إرسال رسالة سرية إلى شقيقه من خلال الفيديو الخاص بحفلة التحقيق. فالرجل كان مهووسا بشخصها وبأفلامها وكان يشتري جميع أشرطة أفلامها، واستعراضاتها. كان مفتونا إلى درجة أثار حفيظة زوجته منها وكانت تشكي من ذلك الاهتمام الذي لم يكن إلاّ وأوشك أن يكون عامل قطيعة بين الاثنين.

وكان «برزان» من وراء الكواليس هو الذي اقترح إنتاج فيلم القادسية ١٩٨١م، وقد أشرف عليه بشكل مباشر، ودعم إنتاجه من وراء الستار، وكان الفيلم عن قصة معركة القادسية، التي وقعت بين الجيش الإسلامي بقيادة «سعد بن أبي وقاص»، و»الجيش الفارسي» بقيادة «رستم فرخزاد»، في عام ٦٣٦م. الفيلم من بين أضخم الإنتاجات السينمائية العربية، وقد شارك فيه جمهرة من الفنانين والممثلين والمخرجين والمؤلفين والموسيقيين والمصورين والمهندسين والمصممين والمؤرخين والمستشارين، وكاد مراد «السيد العام» أن يتحقق بقدومها إلى العراق، على الرغم من أجرها الخيالي والذي

جعلها ترضى أن تكون نجمة ثانوية أمام إحدى الممثلات العراقيات غير المشهورات[1]. كان يتابعها عن كثب طوال فترة إقامتها في بغداد، إلى درجة أنه طلب مقابلتها وحضر إلى صالة الفندق التي كانت تقطنه، من أجلها، ولما قابلته لم يلق منها ريقا حسنا، بل وتضايقت منه كثيرا، لأنه كان يتحدث بوقاحة عن أشياء لا تليق به، ولا بها. وغادر الفندق غاضبا، عندما وصلته إشارة من الذين حوله أنها مرتبطة بالمخابرات المصرية مما جعله يخاف منها، ويتراجع عن تكملة السهرة معها، وتحجّج بجفائها له، وأن نرجسيته لم تسمح له التنازل لها، بعدما قلل من قيمتها الاعتبارية، فهو على الرغم من عصابيته المُفتعلة، وهياجه السريع كان ضعيفا أمام أية امرأة تقابله، وتهلل أساريره إلى درجة يتغير صوته، ويتراخى حتى ينسى بأنه الرجل القوي الشرس في النظام، والمفترس لأعدائه.

- «باتت لا تطاق الوظيفة بسبب ضعاف النفوس.. خاصة عندما يكون رئيس الدائرة من يزرع الفرقة بين مرؤوسيه.. التشجيع على النفاق والطعن في الغياب.. جعلوا التشويه ينعكس على حياتنا.. جعلوا المرء طوال حياته يمشي بحذر على سلك رفيع مخافة أن يسقط

(١) شذى سالم.

في النــار».

وينسـى دائـما إنـه المتـزوج مـن «أحـلام شـقيقة السـيدة الأولى سـاجدة خـير الله طلفـاح» عـلى الرغـم مـن أنـه كان يلقبهـا أمـام المـلأ بِــ «شـجرة الـدر» شـقيقة «عدنـان خـيرالله وزيـر الدفـاع» و»سـاجدة خـير الله زوجـة السـيد الرئيـس» مـن الأب، ورزق منهـا بسـتة أولاد «محمـد»، و»سـجى»، و»عـلي»، و»نـور»، و»خولـة»، و»ثريـا». والعجيـب إنـه يتناسـى دائـما بأنـه رجـل دولـة مهـم، شـخصية مركبـة عـاش في حرمـان وفقـر مدقـع، وقـد فاجأتــه الدنيــا عندمــا وصــل أخــوه إلى «رأس الســلطة»، وباتــت رؤوس نــاس تقطـع بإشــارة منــه.

هــل تعــرف بــماذا أسرني أحــد المنتســبين الذيــن كانــوا مــن بــين فرقــة حراســة بيتــه:

- «زوجتـه لا تـراه إلاّ وتوبخـه عـلى الـدوام بسـبب إنـه كان يقـضي ليليـه في أحضــان الراقصــات الغجريات».

اسـتمر يقـول بهمـس: - «مـا قالـه عنهـم ناظـم كـزار لـولا سرعـة غـدر مسدسـاتهم لمـا اسـتطاعوا أن يتنفسـوا».

- لعـل أحـد أسـباب النيّـل منـك كـون حرمـك المصـون لهـا مـن الشـبه

الكثير من «سعاد حسني- شكلاً- مع حفظ اللقب سيدي».

****

زُعمَ أنَّ الشُعبة الثانية من المُخَابَرَات العِراقِيَّة كانت هي المسؤولة عن عددٍ من الاغتيالات السياسية التي جرت خارج الحدود، وليس ذلك الزعم بعيداً عن جهاز أي مخابرات في العالم، خاصة تصفية العملاء الذين تؤدي خيانتهم إلى أخطاء مدمرة، ولا يمكن تلافيها، إذ تجيزها القوانين الداخلية الصارمة.

****

في شريط صوتي يقول ابن عم «السيد الرئيس» لحبيبته «ميسون المطربة»: «لولا مخافة الله والقيادة لجعلت من صوتك العذب يصدح من مكبرات صوت المآذن خمس مرات في اليوم».

****

لا يوجد إنسان سيء إلى الأًبد، وقد لا يبقى كإنسان جيّد إلى الأَبد، مثلما لا يوجد مخلص إلى الأَبد، ولا خائن إلى الأَبد.. الإنسان كائن كيميائي يتغير ويتفاعل مع كل التغيرات التي تجري من حوله.. لذلك كنت أشير إلى مراقبة معظم الكادر الرفيع من جهاز الدولة، خاصة

العاملين في مناصب مهمة وحساسة، لقد أخضعت عدداً كبيراً من الوزراء والاستشاريين الكبار قبل الصغار من العاملين تحت التدقيق، وتمّ وضع علامات لتباين الثبات والقوة في التفاعل مع الخير، وضعت جدولاً رقابياً غير منتظم بتوقيت، تمّ بموجبه استحصال الموافقة من «السيد الرئيس» على متابعة الجميع دون استثناء، خاصة بعد أن باتت تواجهنا تحديات خارجية خطيرة، ليس بغرض تصيّد الأخطاء، وإنما لحمايتهم من الاختراق الذي نخاف منه، ولأجل تفادي الضرر المحدق بنا. الفحص يأتي بنتائج إيجابية، وصرت أحذر بنفسي كل من يقع عليه الخرق، نتابعه سويا لأننا نعرف أن إنساننا الجيد لا يمكن التضحية به أبداً.

******

تقول إحدى الكاتبات: «يُتيح الحبّ لنا الوصولَ إلى أبعدَ من أنفسنا[1]»، لذلك الانتساب إلى حزب معين لا يعني بالضرورة أن يكون ذلك الحزب جزءاً من الدم، فالأحزاب جميعها منظومات تدّعي العقيدة، ولا شيء آخر في جعبتها غير الادعاء.. تسير وفق ما تريد مصالحها، حتى لو تطلب منها أن تخالف محتوى العقيدة

(١) حنا ارندت.

جملـة وتفصيـلاً، وكل مـا تنـادي بـه. ومـا تبيعـه مـن نضـال للشـعب، مـا لا يمكـن أن تشـتريه هـي مـن الشـعب. دوافعهـا الخديعـة، والتمويـه، وكسـب البسـطاء مـن النـاس، حيـث تعـد كل منهـم عـلى قـدر أحلامـه، عـلى الرغـم مـن أن أغلـب رجـال مدينتنـا انتسـبوا إلى كافـة الأحـزاب التـي جربـت حظهـا في العـراق، قوميـين وشـيوعيين وبعثيـين، وكلهـم كانـوا أكثر فخـرا بالحـزب الـذي انتسـب إليـه، وكل حـزب يفتخـر بشـخصياته، وكنـا مبهوريـن بأسـاتذتنا الذيـن كانـوا يعطونـا الـدروس، ولم نكـن نفـرق بـين ذلـك الحـزب والآخـر إلّا بمقـدار حبنـا لأسـتاذ وآخـر. وعندمـا كنـت في الدراسـة الابتدائيـة كنـت مـن بـين المعجبـين بخـال والـدي «احمـد حسـن البكـر» الـذي غـادر التعليـم مبكـرا، بعـد أن تطـوع إلى الكليـة العسـكرية ليكمـل حياتـه كضابـط عسـكري، وبقـيّ عـلى تواصـل مـع عشـيرته «البيجـات البـو نـاصر» في قريـة «العوجـة» التـي ولـد فيهـا ١٩١٤م. تـزوج مـن ابنـة خالـه «غيـداء نـدا حسـين العمـر» مـن نفـس العشـيرة، وصـار لهـما مـن الأبنـاء «هيثـم»، و«محمـد»، و«عبـد السـلام» تيمنـاً برقيـق السـلاح «عبـد السـلام عـارف».

كان ابنـه «محمـد مـن أقـراني في مراحـل الدراسـة، الـذي عرفتـه قـوي الحجّـة شرسـاً مُهابـاً».. هكـذا وجدتنـي بـين عائلـة، ومحلـة، وقريـة معظمهـم يميلـون لحـزب «البعـث العـربي الاشـتراكي» الـذي ينـادي

بالعروبية والوحدة، وبقيَ أبي يقول عن البكر «المعلم الذي لم يرتضِ لنفسه أن يبقى معلما بين المعلمين»، «عاشق الربابة والأغاني البدوية»، «الذي لا يمل من الحديث عن الماشية»، «الثوري المنقلب على كل جميع رفاقه»، «المزاجي الذي يرتجل القرار وينقضه بعد عدة دقائق».

في البداية اختارني «البكر» مرافقا له عام ١٩٧١م، استطعت أن أنظم له مواعيد عمله وحرصت على راحته بعد أن تفهمت جيدا ما يحب وما يكره، ووجدني الضابط الذي يستحق منه أن يرفّعه إلى المنصب الأهم، تمت ترقيتي إلى آمر سرية حماية القصر الجمهوري، وبدوري قمت بوضع ضوابط للداخلين والخارجين من القصر الذي يستقر فيه رئيس الدولة، وبعد ذلك أتهمني بالتمادي على زوجته التي لم يرق لها حرصي على جعل المكان آمناً، وكأنها لا تدرك بأنَّ زوجها حاكم دولة، ويمكن استهدافه، أو استهداف أحد من عائلته، وأنَّ الحرص في غير محله يقيّد حركتها، فلا داع للتدقيق مع الداخلين والخارجين إلى بيتها، وخاصة بعد أن زادت عليها طلبات الوساطات.

******

ليست بالضرورة أن يكون البحث العلمي في مجال ما، وليس له علاقة بالتجسس، وخاصة عندما يكتب الصحافي قصة حقيقية

تتطلب متابعة موضوع النزول إلى بقعة غامضة بقصد إضاءَتها، وأتذكر يوم توسط أحد الطلبة بغية الكتابة عن تاريخ الحزب الشيوعي في العراق، وكان ذلك من جملة التفاصيل التي عارضت السماح بالدخول إليها، ونصحت بعدم فتح أبواب التقصي عنها، مهما كانت الغاية من تلك الدراسات المهمة، على الرغم من أنها تستوجب المساعدة فيها.. لأنها بوابة الأسرار التي تفتح على جهاز المخابرات المتاعب، وهو في غنى عنها. ثمة رغبة متعاكسة، كأنما خيط رفيع دقيق يفصل الباحث المستقصي عن رجل المخابرات المستقصي، كلاهما خطيران، وكلاهما يمكنهما أن يعطيا نتيجة واحدة، وهي الكشف عن فتح الملفات المطمورة، التي باتت من الأسرار المتكم عنها.

على الرغم من خوف «طارق عزيز» من «السيد الرئيس» استطاع إقناعه، بمطلب صديقه «حنا بطاطو[1]» بعد أن اشترط عليه الثاني:

---

(١) مفكر فلسطيني ارسلته جامعته ليتابع مسيرة الحزب الشيوعي العراقي. ويزعم البعض أنه كان يملك علاقات مع الرئيس العراقي «عبد الكريم قاسم» مما سهل له الوصول للكثير من الأرشيفات السرية لأجهزة الأمن العراقية والاطلاع على تاريخ العراق في فترات متعددة منه حتى السبعينات. مكنته هذه السجلات من وضع دراسته عن التغيرات السياسية في العراق بعنوان «الطبقات الاجتماعية القديمة والحركات الثورية الحديثة في العراق» (الذي نشر عام ١٩٧٨). هذا العمل يركز بشكل كبير على الحزب الشيوعي العراقي فإنه دون معلومات قيمة حول بقية الحركات الثورية العراقية في الريف والطبقات الحاكمة قبل عام ١٩٥٨. ومن الجدير ذكره قد تناول الكتاب مسيرة حزب البعث العربي الاشتراكي في وطبيعة

- «أن يُقرأ الكتاب بمجمله من جهة الجهاز وإن كان صالحا سيقرر ذلك عودته إلى بلده أم لا»!

وقد وافق الباحث على جميع الشروط، وتمّ له السماح بفتح بعض الملفات التي تخص قادة الحزب الشيوعي، وما آلت إليه مصائرهم، القصص الحقيقية. التي تتبعناها منذ البداية كبعثيين خضنا معهم صراعات دامية حول السلطة، وكادت تلك الجولات أن تطيح برؤوس كثيرة من كبار كوادر حزبنا. خاصة بعد وصولنا إلى السلطة، تطلب المحافظة عليها، لأنها تعطي مشروعية لجميع أعمال البشر، مهما كانت بشاعتها وغايتها. السلطة منحتنا تجريم كل من عمل وما يزال يعمل ضدنا. السلطة أمانة بين أيدينا، وعلينا أن نثبت أركان هذه الدولة التي نحن منها، ولا شيء فوقها، فكل من يشهر مسدسه في وجهك.. ما عليك سوى أن تطلق عليه النار فوراً. تسبقه، قبل أن يرديك قتيلاً!

ليست لعبة، أن تعيش، بل أن تبقى تحقق ما تريد تحقيقه بالممكن الذي يتوفر اليك.

لكل حزب قادة يفرضون على الأعضاء ما يرونه مناسبا، لكسب

مساره في قسمه الثالث المضاف.

الجولة بعد الجولة، قادة الحزب الشيوعي، شرسون يؤمنون بالعنف الثوري الذي ينظف لهم الطريق الواضح نحو المجد، خطاباتهم نارية، تشق الصف، وتغزو العقول بجميع الوسائل الممكنة، عرفتهم قد برروا الاغتيال لكل مخالف لهم. فخارطة الشرق الأوسط بمعظمها يمتلكها الجناح الشرقي للمخابرات الروسية، أوجد الأحزاب المتصارعة داخل القطر الواحد، كل صراع يوسع من دائرة هيمنتها، كي تنتصر الإرادة الشرقية على الإرادة الغربية، الصرعات بينهما مناورة إلهاء لا يهمها الضحايا.. إرادتان جبارتان تتصارعان إحداهما تتقدم في ميدان الآخر، وكلاهما يعملان ضد بعضهما البعض، وكلاهما قد استحدثا أكثر من حزب داخل الحزب الواحد، وأكثر. باتا يتاجران بأكثر من فكرة، لكل منهم جنود يعملون لصالح الطرف الآخر، ويقومون هم بتشكيل خطوط الدفاع عن المصالح كل فريق لنفسه، والطرفان يمتلكان جواسيس مزدوجة الولاء، وجوه كالحة ليست مبدئية تنقلب في اللحظة الواحدة ألف انقلاب كي لا تستقر جهة رابحة.

بصقت دماً ثم واصلت الكتابة:

المهم؛ ساعدتُ الباحث كثيرا حتى استطاع أن ينجز بحثه، وأن

يقـدم نسـخة عـن المسـودة الأوليـة مـن بحثـه، تابعـت لـه مفاصلهـا بـكل اهتـمام، وأنـا متأكـد أنـه قـد تـرك بـين فصولـه الحـذرة، أبوابـا مفتوحـة. طلبـت مقابلتـه لأفهمـه أني أجـزتُ لـه الخـروج، ورجوتـه أن ينتبـه جيـدا لخطـورة بحثـه، ثـم يَـسرّتُ لـه المغـادرة، وكنـت عـلى يقـين بـأن هنـاك نسـخة أخـرى مُهربـة داخـل رأسـه، سـتكون الأكثـر اعتـمادا مـن النسـخة التـي جعلنـا نطلـع عليهـا.

- «ليتكم في حفلة التحقيق القادمة تعجلون بنهايتي».

ثم مرة أخرى بصقتُ دماً كان يغلي في سقف حلقي..

كأني أصغيـت إلى صـوت مذيـاع صغـير تصـدح منـه أغنيـة عربيـة، رغـم أنـه محـذور، لم أفهـم منهـا سـوى أنهـا ذكرتنـي بـشيء يخـص الأغنيـة العراقيـة التـي حـدّ مـن انتشـارها وحجبهـا عـن العـالم، المـزاج السـياسي، وقننهـا إلى درجـة هنـاك المئـات، بـل الألـوف مـن الأعـمال الراقيـة مُنعـت لمجـرد أن أصحابهـا ليسـوا بعثيـين، بعضهـا رفعـت مـن أرشـيف المكتبـة العراقيـة، وأتلفـت وكأنهـا لا تصلـح لأي زمـان ومـكان مـا دامـت غـير محسـوبة للحـزب القائـد، بحسـب قناعـة أن الإنسـان، أمـا أن يكـون بعثيـا، أو لا يكـون إنسـاناً، ونكـرة لا يسـتحق الحيـاة، ويسـتحق الإقصـاء والمحـق.. أعـمال فنيـة رسـالتها حكايـة ذكـرى جميلـة لا تنطفـئ يسـمعها

الجميع مرتبطة بالذكريات، باتت اليوم معظم كلمات الأغاني العربية ضعيفة، تشوبها البلادة، ولا ترتقي إلى الشجن الذي في طبيعة الموسيقى الشرقية التي توافق طبلة الأذن المتحضرة.

ثم كررت الجملة عدة مرات: - «ليتكم في حفلة التحقيق القادمة تجعلوها نهايتي».

******

طموح البكر أوصله إلى رئاسة الوزراء أول الأمر، واستمرت حكومته الأولى مدة ١٠ أشهر بعد حركة ١٩٦٣ عندما أطاح «عبد السلام عارف» بحكومة البعث في حركة ١٨ تشرين بعد سلسلة من الإخفاقات والانشقاقات التي اتهم بها «حزب البعث العربي الاشتراكي» على خلفية أعمال عنف التي مارسها الرفاق على الحرس القومي. وأصدر «عبد السلام عارف» الذي تحول ميله إلى الغرب مرسوما بإعفاء «أحمد حسن البكر» من منصبه، وتعيينه سفيراً في وزارة الخارجية. ولكنه سرعان ما أعاده بمرسوم يثبته نائباً لرئيس الجمهورية، ولكن دون صلاحيات.

في البداية وفي النهار اعتاد «الأب البكر» على أن يوجه أمره إلى مساعده الأمين «الرفيق صدام»، ليتكفل بمعيةِ أخيه «برزان» الذي

شـكل عصبـة مـن أبنـاء عمومتـه وبـدأت توسـع أعمالهـا بوضـع خطـة لإزاحــة الخصــوم التــي أخــذت تنفــذ منهــج ســياسي صــارم.

اسـتمر ذلـك لمـا بعـد حركـة ١٧ تمـوز ١٩٦٨ ليتمكـن «الرفيـق البكـر» مـن الإطاحـة برفيقـه «عبـد الرحمـن عـارف»، حيـث تـولي منـه الرئاسـة، وتقاسـم مـع «عبـد الـرزاق النايـف» كرئيـس للـوزراء، الـذي كان بمنصب مديـر الاسـتخبارات العسـكرية، ولم يسـتمر ذلـك التقاسـم سـوى عـشرة أيـام، حتـى أطيـح بـه إثـر حركـة ٣٠ تمـوز، التـي نجحـت بمعيـة «صـدام»، الـذي نفذهـا بجـرأة ‏هـو- وأخوتـه، حيـث تـم اقتيـاد الخصـم تحـت وطـأة السـلاح، وطـرده إلى خـارج البـلاد.

بتلـك الإزاحـة تفـرّد «البكـر» بتصـدر مجلـس قيـادة الثـورة (الجهـة التشريعيـة) ومنصـب القائـد العـام للقـوات المسـلحة العراقيـة، إضافـة إلى الأمانـة العامـة للقيـادة القطريـة. بقـي «البكـر» يسـتند سرّا وعلنـا عـلى «الرفيـق صـدام» حتـى جعـل منـه «السـيد النائـب» وإلى درجـة علقـت صورتاهمـا معـا في جميـع مرافـق الدولـة، وامتـدت صلاحياتـه ليأخـذ بهـا باطنـا حتـى أعلنـت ظاهـرا يـوم ١٦ تمـوز ١٩٧٩، وقـام «الأب القائـد» بتنحيـة نفسـه عـبر خطـاب بثـه التلفزيـون العراقـي يـوم انقـلاب ١٧ تمـوز، وتـولّى عنـه رسـميا كافـة السـلطات، بعدهـا صـار يكشـف ممـا أخفـاه مـن

نيات ظهرت بعد أسبوعين من ذلك عندما أعلن عن مؤامرة مجزرة قاعة الخلد التي وحد بها الحزب والدولة وأصبحا طوع بنانه. فأسرار مؤامرة «ناظم كزار» على «البكر» بقيت توازي المؤامرة التي قام بها «الرفيق صدام» في «قاعة الخلد» على زملائه القدامى.

****

الأسئلة التي وجهت لي شفويا.. عمدتُ إلى إعادة تدوينها في أعلى الصفحة الأولى، ثم وضعت لها عنوانا: اسميته «بكل وقاحة»، ورحت أدون تحته ما يطيب لي من هذيان:

- سبق لك أن تقصدت الرفيق «برزان إبراهيم الحسن» بشكواك عند «السيد الرئيس» مدعيا فيها التحرّش بحرمك المصون أم أولادك.. هاتفيا؟ وسبق لك النيل منه وإصابته في مقتل يوم خلفته في المنصب، وتعمّدت الاستقصاء الدقيق لأجل مصادرة ممتلكات اصدقائه المخلصين في الخارج وبعتها لصالح الجهاز مدعيا أنها مشتراة من أموال «مديرية المخابرات سابقا»، وجعلت منهم خاسرين لأموالهم واستثماراتهم، التي هي من حلال مالهم. وأنت تعلم أنه من بين أكثر إخوته إخلاصا وولاءً للعراق. فقد كان وما يزال العقل الراجح في بناء هذه الدولة العظيمة وهو من بين أبرز مراكز القوى الرئيسة في ثبات

العـراق العظيـم ضـد الامبرياليـة العالميـة، الرجعيـة، العميلـة، الصهيونيـة.. جريمتـك التعمّـد بمحاولتـك زرع الفتنـة بـين القيـادة السياسـية العليـا بغـرض شـق صفهـا.

منـذ تلـك الحفلـة زادت وتـيرة القسـوة عـليّ، إذ أخـذوا يضربـوني شرّ ضرب، إلى درجـة فقـدان الوعـي، ولم يكتفـوا بذلـك، صـاروا يشـدّون أكثـر ظنـا منهـم أننـي أفتعـل فقـدان الوعـي، وباتـوا يضربـون رأسي بالحائـط، بغيـة إسـقاط الابتسـامة التـي بقيـت عالقـة في وجهـي، والتـي لم تتأثـر أبـداً. وفي اليـوم التـالي وجـدت نفـسي مقلـوع اظافـر القدمـين، وقـد تيّبـس الـدم إلى درجـة التصـاق أصابعـي ببعضهـا البعـض ولم أسـتطع أن أحـرك رجـلي خطـوة واحـدة مـن شـدة الـضرب الـذي نـال مـن خـاصرتي وتقـرح فخـذي. ثـم وجـدت مجموعـة أوراق جديـدة وقلـم كـي أجيـب عـلى الأسـئلة الجديـدة. المطلـوب منـي بعـد كل حفلـة أن أكتـب وأكتـب:

- غالبـا مـا يكـون محتـوى أي اعـتراف في «علـم المخابـرات» ليـس دليلا عـلى الخيانـة، دون أن يلحـق بدليـل مـادي ملمـوس وقـد لا يؤخـذ بـه. ثمـة فـرق بـين الاعـتراف والإقـرار، الاعـتراف مـا يؤخـذ مـن المتهـم دون إرادتـه وتحـت ظـروف معينـة، أمـا الإقـرار غالبـا ما يـأتي بـإرادة المتهـم دون أي ضغـط. وعندمـا يطلبـون منـي الاعـتراف والإقـرار فليـس لـدي واقعـة

تثبت الاعتراف، أو الإقرار. فأبتسم منتصراً لأني أعلم أن الاعتراف الذي يطلبونه مني لا دليل يثبت واقعة الجرم. الدليل لا يكون دليلا إلا بأثر أحداث ضرر، ولابد أن يتطابق بتسلسل مقنع مع الأثر أو الدليل المتروك، لا يمكن أن يكون اعتراف دون جريمة سابقة ولا يقبل به القانون. ويعتبره تضليلاً للعدالة، مواد القانون لا تتساوى، لذلك؛ لا تؤدي جميعها إلى الاعدام. فالمحقق في جهاز المخابرات يكون ذكياً ومتعلماً ومطلعاً على المستجدات من الأحداث، وأسبابها، والقادر على تحليل، وتقييم ما يتحصّل عليه من المتهم، لأنه في مواجهة تحديات ومخاطر المواقف الحرجة... صفة من بين أهم الصفات التي تمكنه من أداء مهامه بكفاءة وأمانة، كون أي قضية تحقق فيها المخابرات تتعلق بها مسألة عالمية، والجرائم التي يختص بها «جهاز المخابرات» جرائم كبرى لها علاقة بالسياسة الدولية وليست على المستوى الشخصي.

صرنا نسمع الأسئلة المعيبة، ونحن نعرف بعضنا «أولاد الكَرْيّه كل واحد يعرف أخيّه[1]»، كشفنا جلاد الليل ذاته رسول السلام في النهار.

«الدليل المادي على جرمه بحقي مجموعة الشرائط الصوتية التي

(١) مثل شعبي عراقي.. أولاد القرية يعرفون بعضهم البعض

سجلتها له زوجتي «أم علي» بنفسها» محتواها معاكسات هاتفية وتهديدات تعمدت النيّل من عقيلة رجل دولة مهم، وهي أم لولدين وبنتين، وطفل ثالث ستلده قريباً».

******

هناك علامات وشفرات تحملها الخطابات التي تكشف عن ولاء رئيس الدولة للجهة الحقيقية التي ينتسب إليها، تلك في الغالب تكشف جرم انتمائه بدلائل تقصيره ضد مصلحة بلاده. ضباط المخابرات يتحسسون ذلك ويستخرجون من الكلمات إشاراتها الحقيقة الكاشفة بسهولة عن مراميها.. أغلب الخطابات التي يدلي بها الرؤساء أو من ينوب عنهم، تؤكد ولاءها إلى من تواليه. مثلما سهولة التعرف إلى نظيره من مدرسته المخابراتية، حتى ولو لم يقابله أو يتعامل معه بشكل مباشر، أو حتى يشار له عليه. تصرفاته، اهتماماته، اتجاهات كل شيء تدل عليه. ما أن يتقابلا حتى يعرفا بعضيهما أكثر دون أن يفصح أحدهما للآخر عن هويته، ليمضيا قدما نحو ما يراد منهما وليس إلى ما يريدان.

******

إن محاولـة كشـف أي خلـل في الدولـة لا يعنـي أن الكاشـف يتقاطـع مـع مسـيرة النظـام، وهـو عـلى الأقـل يبغـي الإصـلاح، ويتمنـى تعديـل الخلـل، بكشـفه، وأن الكاشـف في أغلـب الأحيـان لا يكـون كارهـا، وإنـما محبـاً مـن بـين المحبـين، الشـعوب الحيّـة ليسـت عبئـاً عـلى قياداتهـا، أبـداً. تنتظـر الإصـلاح، وعندمـا يكـون الإصـلاح مسـتحيلاً تقـوم تتصاعـد مـن القـاع العميـق حلقـات المـاء تـدور حـول نفسـها، ثـم تكـبر لتصبـح إعصـاراً، وغالبـا مـا تشـبه الثـورات الأعاصـير التـي تقتلـع الأخـضر واليابـس. خاصـة عندمـا بـدأت صراعـات مراكـز القـوى للدائـرة القريبـة جدا تشـتد، وأخـذ التزاحـم بالتملـق يحقـق النفـوذ، والنفـوذ يحقـق المكاسـب. صـارت الدائـرة القريبـة تتضخـم فيهـا الغـيرة مـن بعضهـا البعـض، وخاصـة عندمـا بـدأ يكـبر أولاد «السـيد الرئيـس». فأصبـح «الصهـر» يشـعر بالضعـف كلـما كـبروا، ويتوجـب عليـه أن يمهـد لنفسـه بإزاحـة كل مـن لـه علاقـة وثيقـة بالقـرار الفاعـل، ويتطلـع الى جهـاز المخابـرات، ووزارة الدفـاع، رغـم عـدم معرفتـه بأيـة لغـة أجنبيـة، ولا سـبق لـه أن درس واجبـات الأركان. إلا أنـه بقـيَ يرنـو إليهـما، وكان يعـرف عمـق العلاقـة وصدقهـا التـي تربطنـي بِــ «عدنـان خـير الله»، بـات يذهـب للتخطيـط الدقيـق إلى مكاسـبه السريـة، ويعلـم أني غـير مأمـون الجانـب مـع المحتالـين؛ بينـما ملفـه المـلىء بالمخالفـات التجاريـة ينتظـر الفتـح!، سـبق لـه أن كتـب عنـي

تقريـرا يقـول فيـه: «منـذ العـام الأول في المنصـب تـم التمكـن مـن تصفيـة نفـوذ «الأخ غـير الشـقيق للرئيـس القائـد» في المخابـرات، واسـتطاع بدهـاء نقـل أبـرز مسـاعديه إلى خارجهـا»، ولم يكـن يعنـي بـأني فرضـت التعليـمات التـي تطهـر الدولـة مـن المحسـوبيات، وتلـك نجاحـات، تشـعل الدائـرة القريبـة مـن الرئيـس شـعوراً بالتوجـس، بكشـف انحرافـات واختلاسـات عـدد مـن أخوتـه وأبنـاء عمومتـه الذيـن طغـوا بشـكل سـافر، تلـك مسـألة تسـتهدف الاسـتئثار.. ببسـط النفـوذ الشـخصي.

****

رجـلُ المخابـرات يكـون محنّـكاً وماهـراً ومبدعـا ومبتكـراً في اسـتخدام الوسـائل والأسـاليب والتقنيـات والأدوات والأجهـزة والبرامـج والشـبكات والتشـفير والترميـز والتنكـر والتمويـه والتضليـل والتحايـل والتلاعـب والإقنـاع والتجنيـد والتدريـب والتوجيـه والتحفيـز والتقييـم والتقديـر والتخطيـط والتنفيـذ والتنسـيق والتعـاون والتواصـل والتقاريـر والتغطيـة والتغيـير، والتحـول، والتحسـين، والتحديـث.

****

أغلـب مـا لـدي مـن الأصدقـاء، أدخلوهـم تباعـاً، الى غرفـة الرياضـة، وطلبـوا منـي البـول في كل مـرة عـلى رأس واحـد منهـم.

جـاؤوا بي بعـد أن تركـوني ثلاثـة أيـام دون أن يأخذونـي إلى غرفـة التحقيـق. ثـم عـادوا بعدهـا؛ كـم أكـره تلـك الأيـدي التـي تمتـد عـلى الأعضـاء الحساسـة بغيـة هرسـها، ليسـت لأنهـا مؤلمـة وحسـب، ولكنهـا تذهـب إلى معنـى آخـر، الإخصـاء إهانـة حـدَّ المـوت. تركـوني اسـترح، واسـتدعوني، ولكـن دون وضـع العصبـة حـول عينـي. قـال لي أحـد المحققـين وهـو يسـحبني إلى الممـر ويجعلنـي أقـف فـوق غرفـة الرياضـة، هـذا هـو الحـمام تفضـل، قـال بصـوت زاجـر وهـو يلـوح لي بهـراوة كانـت في يـده، هنـا حمامـك فافعلهـا فـوق الغرفـة... كان الذبـاب حولهـا وفوقهـا، وقبـل أن يضربنـي تعمّـدت أن أطلقهـا تحـت سروالي، وأبلـل بهـا نفـسي، كـي لا أراهـا تنـزل عـلى رأس صاحبـي، وصديـق عمـري. بعدهـا انهالـت عـلى ظهـري الضربـات الموجعـة بالهـراوة كاد مـن شـدّتها النفَـس ينقطـع، وأمـر مسـاعديه بتقييـد رجـليَّ بسـلك الفـولاذ، ثـم وجـه بتعليقـي بواسـطة الرافعـة، كـي تأخـذني مقلوبـا إلى أسـفل، وكـم كان السـلك حـادا كأنـما يشـد عـلى رجـلي ويـكاد أن يخرقهـا، وطلـب منهـم أن أبقـى سـاعة كاملـة. بينـما كان ثقـل جسـدي يضغـط عـليّ أكثـر، السـلك اخـترق اللحـم ووصـل إلى العظـم، طفـر الـدم منـي كـما ينفـر مـن ذبيحـة في مسـلخ.

مـا أن خـرج وتركنـا حتـى أنـزلاني، ووضعـاني عـلى بطانيـة كانـت مفروشـة عـلى الأرض ثـم حمـلاني عائديـن بي إلى الزنزانـة، وقـد أشـعل لي

أحدهم سيجارة، وقدمها لي قائلاً بهمس في أذني: «أعلم يا سيدي كم أنت طيّب ولا تستحق منهم ما يفعلونه بك».

******

تأتي التبليغات من القيادة المركزية وغالبا ما تحمل القرارات تحمل جملة تحولات في بنية أجهزة الدولة، وغالبا ما تكون بإعادة بناء. ذات يوم من أيام تموز ١٩٩١م حضر «يفكيني بريماكوف»(١) رئيس جهاز المخابرات الخارجية في مهمة عاجلة لمقابلة «السيد الرئيس»، وصادف أن «السيد الرئيس» كان مصاباً في حادث طريق انقلبت به سيارة هو مَن كان يقودها جراء تملصه من مراقبة طائرة من طائرات التحالف كان يظن بها تتبعه. ورغم ذلك قابله دون أن يلحظ إصابته التي كانت في كتفه الأيسر.

الأخبار التي كانت تظهر على الشاشات في حقيقتها أخفت حقائق أخرى، ظاهرها معادلات تكشف عن اتفاق «ميخائيل غورباتشوف الشرقي» و»جورج بوش الغربي» اللذان وقعا على معاهدة نقل الأسلحة الاستراتيجية (ستارت *١)، والتي تنص على تخفيض الرؤوس النووية لكل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي بنحو

(١) يفكيني بريماكوف (١٩٢٩ -٢٠١٥) رئيس وزراء روسيا في الفترة من ١٩٩٨ م إلى ١٩٩٩ م.

٣٥٪، وجعلانا نأمل خيرا من هذين القائدين المتضادين في المنهج والمتصارعين في حرب ضروس، كأنهما يتفقان أمام وكالات الأنباء العالمية على إنهاء الحرب الباردة.

وفي نهاية الشهر نفسه تستقر عملية «إعادة البناء» الروسية، والتي أوقفت تفكك عربات القطار السوفيتي، وأن تبقي على العربات المترابطة جيداً، وقبل أن تنفلت من تحت الجميع، السكة الحديدية. وفعلاً بعد أشهر تولى «بوريس يلتسين» رئاسة روسيا، حصل على ٥٧٪ من الأصوات في الانتخابات الرئاسية الأولى في تاريخ الجمهورية الروسية، أول تغير على وجه الخريطة، وأول علامة تماسك في أروقة القصر الأحمر، تنبثق «جمهوريات روسيا» من الإمبراطورية القيصرية، وتتابع الركب، ممسكة بهيكلية الجهاز المتأهب بكامل طاقته «الإنتاجية».

******

ابن عم السيد الرئيس، ويده القوية الضاربة اتهم الفنانة «ميسون» أنها تعمدت تصفيته، وبعد أن نقل إلى المستشفى، وإجراء اللازم أجمع الأطباء بأنه لم يتعرض إلى الاغتيال بالسمّ، ولكنها أزمة قلبية، جراء الإفراط في تناول المنشطات الجنسية، وبات الحدث يحكى في السرّ، ولا يجد من يتكتم عليه.

أعشق التوثيق، ولن يهمني شيء بقدر ما تهمني الوثيقة، دونها من الكلام العابر، وليس من التاريخ.. لا أنصح بالإصغاء إلى أحد من دون شهود عيان، وأتوجس خوفاً من كل جزاف، خاصة التحدث نيابة عن التاريخ، عندما كتبت كتابي الأول عن «دور الجيش العراقي»، كان وعيا في تتبع القصة بعيدا عن الكاره والمحب.

بعيداً عن الميل الثقافي للمحب بحيث يستطيع إقناع المحبين بحبهم، وكذلك الكره الثقافي في إقناع الكارهين في نزقهم الثقافي، ويؤيدهم تاركاً إياهم في عماهم. الحبُّ ليس تزلفاً للتاريخ الذي معظم تفاصيله لم يكن في تسلسل مقنع، ولست مع من أحب الحكايات العاقة وجعلها تتسطح أمام العقل، زراعة الأوهام في العقول البسيطة مع الجوع مع المناداة بالحرية والاشتراكية، استغفال وضحك على الذقون معظم الأحزاب التي جاءت بلا رصيد حقيقي من المواجهة. لدينا مثقفون تنقصم الشجاعة في مواجهة الموروث الاجتماعي الذي هو المعمق لمفهوم التسطح، مفاهيم بعيدة عن طبيعة العقل البشري، أعطيتنا شرائعَ، ومعها أعطيتنا عقلاً يخالفها كما قالها «ابن رشد» اعطونا نيابة عن الإله مفاهيم ترسخ أمام المتخلفين، كتبت الرأي في المحرض على درس التاريخ، وطالبت بإعادة كتابة التاريخ، وتشذيبه وفق المعرفة وإعادة النظر بكل ما ورد خاصة كل تلك القطع غير

المقنعـة، التـي تبـدو لعقـلاء القـوم بأنهـا حكايـات همجيـة مجـردة، لم تعـد تصلـح للاسـتخدام البـشري.

******

فُتِحَـتْ بـاب الزنزانـة بزمجـرة غـير مألوفـة، ودخـل عـليَّ اثنـان يرتديـان الأقنعـة، جعـلاني أتوجـس كالعـادة مـن كل حفلـة قادمـة تتضمـن طريقـة جديـدة لم تجـرّب مـن قبـل، كانـت الشرايـين في رأسي تنبـض كأنهـا تدمـدم بـأسرع مـن قبـل. صـداع شـديد.. لا أعـرف مـن قلـة النـوم أم ممـا جـرى قبلـه، ليـت الوقـت يمـوت، والسـاعات الطويلـة تختـصر نفسـها. الوقـت ثقيـل الـوطء، يتـمادى هـو الآخـر، لا أعـرف في أي وقـت مـن اليـوم، لا مـن الأسـبوع، ولا مـن الشـهر، معظـم السـاعات التـي رسـمها «سـلفادور دالي» سـائحة، تـكاد تندلـق مـن عـلى المنضـدة أو مـن عـلى السريـر إلى الأرض، كنـت أرى الأجـواء مـن حـولي ضبابيـة كأنـما تسـيح، وتندلـق منـي إلى خـارج الزمـان والمـكان.

كلـما فتحَـتْ بـاب الزنزانـة، يصيبنـي شـعور بالغثيـان، وأريـد ان أتقيـأ، بعـد أن تفاقـم كل شيء، بيقـين، أنهـم جـاؤوا إلى حفلـة جديـدة، سـوف لـن تقـل مفاجـأة عـن سـابقاتها، وتأخـذ منـي بقيّـة مـا اسـتجمعت مـن قـوة، كالعـادة يتركـوني يـوم أو يومـين، ثـم يعـودون إليّ بدعـوة تتكـرر فيهـا

الأسـئلة التافهـة. وأجيـب عليهـا بابتسـامة، قـد بيَّـتُّ قـراري أن أسـتجمع أنفـاسي، وأرشـقهم بقهقهـة قاتلـة، إذ كانـت الابتسـامة تعنـي الاسـتهزاء، فالضحـك بصـوت عـالٍ يـوازي رشـقة رصـاص.. يقينـاً أن تلـك الحفلـة فيهـا أسـئلة جديـدة في تكرارهـا، ودورانهـا، وترافقهـا طـرق جديـدة في الإيـذاء.

تنبهـتُ في اللحظـة الأخـيرة؛ حيـث لم يلبسـني أحدهـم كيـس القـماش القاتـم، أو يربـط العصبـة حـول عينـي. قـاداني دون أي كلام، وحـاولا مسـاعدتي عندمـا تعـذر علـيَّ المـشي، والألم يغـلي في كل جـزء مـن جسـدي.. قدمـاي لم تسـتطيعا حمـلي، لذلـك تعاونـا عـلى حمـلي برفـق، وتوجهـا بي إلى حمـام نظيـف الجـدران لم أدخلـه مـن قبـل، ذهـب ذهنـي إلى أنهـم سـوف يفعـلان بي أمـراً سـخيفاً، ولكنهـما أجلسـاني عـلى كـرسي ذي مسـند أحـضره إليهـما محقـق ثالـث، ويحمـل كيسـا في يـده الأخـرى فيـه بعـض الأغـراض، وشرع بـكل رفـق ينـزع عنـي قميـص وسروال «البيجامـا» المتسـخة جـدا.. ولكــن يــدي منعتهـما عــن إســقاط قطــع الغيــار الداخــلي، نظــرت بشــزر. قــررت الاستســلام قبــل أن يكــشرا عــن أنيابهــما. نطــق الآخــر، وكأنــه يقاطـع الأول: «اطمئـن سـيدي».

بقيـت عاريـاً مثلـما ولـدت، وغطيـتُ عـورتي بكفـيَّ الاثنتـين، وراح

الماء الدافئ ينزل عليَّ برأفة وحنوّ من الصنبور المطاطي.. كأنما لم ينزل عليَّ ماء أطيب منه، صرت أقول مع نفسي «حقا إنه ماء كما ينبغي على الماء أن يكون»، صار يرشّني به أحدهم، والآخر يفرك بيديه المحمية بقفاز بقية أنحاء جسمي من شعر رأسي حتى أخمص قدمي، كنت أحاول مقاومة خجلي، وألا أرفع يدي عن وسطي. طلب من صاحبه أن يزيد دفق الماء لإزالة بقيّة الصابون العالق، بعدها وضعا عليَّ «منشفة»، وراحا يزيلان ما علق بي من ماء.

ألبساني دون تكاسل غيارات جديدة، وفوقها «بيجاما» جديدة. ثم تقدم الثالث مني ووضع صدرية حلاقة على كتفي وصدري ثم واجهني بماكينة حلاقة كهربائية وأزال بيسر لحيتي الكثة، وأنهضاني سويا من الكرسي، برفق أكثر من السابق، بعدها قاداني عبر الممر الطويل إلى غرفة فارغة إلا من سرير.

قبل أن يتركاني، سألت بصوت كأنه لم يخرج:

- اليوم أربعاء.. اليس كذلك؟

قال لي: لِمَ تسأل؟

قلت: - موعد الإعدامات الأسبوعي.

ثم أضفت: - جاء الفرج، حانت النهاية، وجاء القرار بالإعدام؟

قال الثالث:

- كف عن الكلام.. ألا تعرف بالسياقات؟

ليؤكد لي قد دنوت من الموت، حتى يتم تسليم الجثة نظيفة، وحليقة إلى ذويها، كما لم تجر مثل تلك السياقات مع غيري، توضع الجثة في تابوت مُقفل بالشمع الأحمر، وتسلم بتحذير لذوي الشأن، بعدم فتح الصندوق أثناء دفنه، مع عدم قبول التعزية من أحد.

حضر ضابط برتبة عقيد وبصحبته اثنان، سألني:

- هل أنت جاهز؟

أجبته: - نعم جاهز للموت.

ابتسم بعد أن أشار لمن معه أن يساعداني بالجلوس على كرسي بعجلتين، كأنما أحضروه من أجلي. عند الباب تبين لي أنها البناية ذاتها التي كنا نسميها «عمارة السيارات»، عند بابها وقفت سيارتان بلون أبيض، انحنى عليّ أحدهم ثم وضع إحدى يديه تحت إبطي والأخرى تحت فخذي، وحملني إلى داخل السيارة ثم وضعني في المقعد الخلفي.. كان بصحبته ضابط آخر برتبة «عميد»، ينتظر في المقعد

الأمامـي، وقبـل أن تنطلـق بنـا السـيارة، لحـق بنـا أحـد المقنعـين اللذيـن حمـاني، وفتـح البـاب ثـم جلـس بجانبـي، دون أن يقـول أيـة كلمـة، غطـى رأسي بكيـس أبيـض.

بعـد حـين تأكـدت بأنهـما مـن الحـرس الرئـاسي الخـاص، وإنهـما لـن يذهبـا بي إلى المـوت، وإنـما إلى مقابلـة «السـيد الرئيـس». رحـتُ أذهـبُ بحـدسي أكثـر، أن كلـماتي التـي كنـت أكتبهـا لـه في أوراق التحقيـق، قـد حفـرت عميقـاً في نفسـه، وقـرر أن يطلـق عـليَّ النـار بنفسـه.

******

الآلام موغلـة في كل مـكان مـن جسـدي، إذ بـتُّ مهدمّـاً إلى أبعـد ممـا قـد يتصـوره أحـد، صـارت مضاعفـة بسـبب انخفـاض السـكر في الـدم مـن جـراء تقنـين وجبـات الغـذاء، وباتـت وجبـة واحـدة في اليـوم لم تـزد عـلى خمـس حبـات تمـر زهـدي مـع نصـف رغيـف خبـز نخالـة يصـل تالفـا إضافـة إلى قـدح مـن المـاء، ولكنـي رغـم كل شيء، مبتسـم وأتمنـى أن أصـل إلى نهايتـي مرفـوع الـرأس، ولسـت بخائـن، ولسـت بمرتـشٍ، وإن كانـت عصابـة الضبـاع التـي حـول الرئيـس كلهـا مشـمولة بقانـون الخيانـة، والرشـوة والمحسـوبيات.. كلهـم باتـوا فاحـشي الثـراء عـلى حسـاب أرواح النـاس، بينـما أنـا «المفلـس الأمـين الـذي في القافلـة».. عـلى الرغـم مـن

تملكـي لِــ «حسـاب سـويسري».

نعـم مسـتعد أن أسـلم رقـم حسـابي المزعـوم مـع رقـم مفتاحـه الـسري، ولكـن بحضـور مديـر عـام حسـابات الجهـاز، فأنـا لسـت المتهم بالمحسـوبية والإثـراء! عـلى حسـاب صفقـات تجاريـة أجرتهـا «مديريـة الـزرع ونصب الأجهــزة».. اســتنادا إلى المصلحــة العامــة قررنــا شراء كامــيرات مراقبــة صغـيرة الحجـم دقيقـة التصويـر ألمانيـة الصنـع، كأصغـر كامـيرا في عـام ١٩٨٨م، طـرازًا جديـدًا والـذي كانـت تـزن ٢٥ غرامًـا ويبلـغ طولهـا ٤ سـم، وعرضهـا ٢ سـم، وارتفاعهـا ٥, ٠ سـم، ويمكـن لتلـك الكامـيرا التقــاط ٤٠٠ صــورة بجــودة عاليــة، وكانــت ثــورة في مجــال التصويــر الرقمـي. واسـتنادا إلى ذلـك تـم فسـخ العقـد مـع «الصـين»، تماشـيا مـع المنتـج الأحـدث الـذي يحـوي عـلى المواصفـات التقنيـة الأقـدر، ولم يهمنـا فـرق السـعر، بـل النتائـج، وتشـكلت لجنـة مـن الضبـاط النزيهـين وقامـوا بإبـرام العقـود عـلى أحسـن وجـه، ولم يكـن للمصلحـة الفرديـة أي موقـع.

مازلــتُ أدفــع للألمــان مــن راتبــي بقيــة أقســاط البيــت الــذي انتزعــه منـي «السـيد الرئيـس»، أنـا لسـت خائنـاً، بـل تهمنـي المصلحـة العامـة أكثـر مـن أي رجـل في هـذا البلـد، وأنتـم بحاجـة إلى أدلـة كـي توقعـوني، لم أعمـل في الظـل أبـداً، أوراقـي ووثائقـي كلهـا مودعـة في الأرشـيف العـام

للجهاز، ولست بسارق، «أريد الموت ولا أريد الرحمة».

أكتب وأكتب لأكاشفكم جميعا؛

أطالب بكشف الحسابات السرية، لا استثناء لأحد..

كل هذه الملايين والأرقام الخيالية من الأموال، سيبتلعها منكم «الأمريكي» قريباً، وسوف لن يترك لأحد منكم مكاناً تستقر فيه قدم، «غاصت القدم في الوحل» وسيعود الغرب بكل تفوقه العسكري لاستعادة موقعه الجغرافي في قلب الشرق الوسط بعد أن خسره في انقلاباتكم المزيفة، الغرب قادم بقوة التكنولوجيا، ألا ترون دقة إصاباتها، وفعلها المشين في تدمير البنية التحتية، قادمون، ولن تنفع السبائك الذهبية المودعة سرّا في البنوك العالمية.

لن تنفع بناتكم الأكوام من الألماس والزمرد. ولن تحمي «برزان» دقّة الإصابة من مسدسه التي يقطع بها خيط بكرة من على بعد ثلاثين متر. التقنيات باتت في سباق محموم من أجل البقاء للأقوى، أين أنتم من العلوم والمعارف، فـ «العوجة» ليست مركز الكون، وليست سوى قرية عراقية تقع على الضفة الغربية لنهر دجلة، وتبعد حوالي ١٣ كم جنوب مدينة تكريت.

آخـر مقابلـة كانـت بينـي وبينـه قبـل ثلاثـة أشـهر مـن احتجـازي، في يـوم زيـارة وزيـر الخارجيـة الـروسي «يفكينـي بريماكـوف»، الـذي كان يشـغل رئيـس جهـاز المخابـرات الروسـية السـابق في زيـارة عاجلـة، غـير معلنـة.

حسـبما كنـت أعـرف أن «برتوكـول القيـادة» يقتـضي الخصوصيـة في التبليغـات، والتعليـمات المقتـصرة عـلى صاحـب القـرار، في أعـلى درجـات السريـة، يتـم تبليغـه عـبر نظـير لـه في المنصـب، مشـافهة وجهـا لوجـه، بعيـدة عـن أي توثيـق، أو اعـلام. تبليغـات متعلقـة بقـرارات سـيادية، صـادرة إلى رأس السـلطة الحاكمـة، أوامـر صارمـة مـن «الكومسـار»! بغيـة تفكيـك جميـع الأزمـات، المرتبطـة بالسياسـة الدوليـة، وطبيعـة توازنهـا. محتواهـا الدعـم المعلومـاتي، والتحذيـر المبـاشر مـن جميـع الأخطـار المحدقـة المتعلقـة بالأمـن الوطنـي.

- أيها الرفيق القائد..

احـذر مـن «تـل ابيـب» التـي قـررت الاغتيـال بـأي ثمـن، وتـمّ تهيئـة صواريـخ صغـيرة بالغـة الدقّـة، سـوف تسـتهدفك في أي مـكان تظهـر فيـه، وثمـة قمـر صناعـي لذلـك الشـأن، رأسـك مطلـوب، والأولويـة أكثـر مـن أي وقـت سـابق»، وأن تعفـي نفسـك مـن أي سـفر عـبر الجـو، مـع مراعـاة

عـدم اسـتخدام الاتصـالات الاعتياديـة، وتفويـت النيّـة المبيّتـة عـلى أعـداء الامـة العربيـة!».

واختيـاره لي؛ «إفشـال المؤامـرة العالميـة التـي تبغـي النيـل مـن سـيادة العـراق العظيـم وقائـده الـضرورة الملهـم». ولم يسـتبعد احتـمال أن المخابـرات الروسـية ذاتهـا قـد تكشـف المهمـة لِـ «إسرائيـل» مقابـل ثمـن مـن المعلومـات الحساسـة مقابـل معلومـات مخابراتيـة حساسـة، بغيـة اسـتهداف طائرتـه جـواً، ولا شـفيع أمـام المصالـح.. إذ بـات يعـرف أنـه ورقـة محروقـة يجـب اسـتبدالها في أقـرب فرصـة ممكنـة.

مثلـما الصواريـخ الروسـية المطـوّرة عراقيـا، لم تحقـق هدفها الاسـتراتيجي بحسـب الـوكالات، صواريـخ قديمـة ١٩٤٥م لم تؤثـر بشـكل كبـير عـلى الوضـع العسـكري في الحـرب، واسـتخدامها ذهـب إلى زيـادة الغضـب والاسـتنكار الـدولي ضـد القيـادة العراقيـة والروسـية باطنـا، وقـد سـاهم في تعزيـز التضامـن والتعـاون بـين دول التحالـف، أدى إلى خسـارة باهظـة في تدمـير معظـم البنيـة التحتيـة العراقيـة جـراء القصـف الجـوي المكثـف بواسـطة الطائـرات الأمريكيـة والبريطانيـة والفرنسـية، والتي دمـرت أغلب مواقـع الإطـلاق والتخزيـن والإنتـاج للصواريـخ الروسـية العراقيـة، إضافـة إلى الجسـور، ومحطـات الكهربـاء، والنقـاط الحيويـة.

تزامـن ذلـك اللقـاء معـه بعـد إعفائـي مـن رئاسـة المخابـرات، وبقـي الجهـاز في فـترة فـراغ، وتـم رئاسـته مـن قبـل مسـاعدي «فاضـل صلفيـج العـزاوي» بجعلـه رئيسـا مؤقتـا، حتـى يحـين اختيـار «الشـخص المناسـب في المـكان المناسـب».

بعـد أن أشـار عليـه الـروس، رفـع التليفـون عـليّ، وطلـب بنفسـه أن أقابلـه فـورا، ليتـم تكليفـي بمهمـة عاجلـة بالتوجـه نيابـة عنـه، حيث تشـفع السـمعة الجيـدة بـين رؤسـاء الـدول ورؤسـاء أجهـزة المخابـرات في العـالم.. إضافـة إلى حمـلي وظيفـة مستشـار مكتب الرئيـس للشـؤون الأمنيـة، في مهمة مقابلـة العاهـل المغـربي، وتسـليمه رسـالة شـخصية مـن «السـيد القائـد». و»يمكنـك بعدهـا قضـاء أسـبوع اسـتجمام». فـما كان أمامـي سـوى القبـول بالسـفر دون تأخـير إلى «الربـاط» بغـرض الطلـب مـن الملـك بالتوسـط لـه عنـد الأمريـكان وبتقديـم «صـك مفتـوح يعنـي إجـراء مفاوضـات مقبولـة الـشروط» مـن أجـل تسـوية الخطـأ القاتـل، الـذي اعتـبر قـرارا مرتجـلا دون مراجعـة مـن ذوي الاختصـاص بالشـأن السـياسي بخصـوص إطـلاق عـددٍ مـن الصواريـخ البالسـتية الروسـية ضـد «تـل ابيـب». والتـي كانـت بغرض إثـارة رد الفعـل غايتـه خـرق التحالـف الـدولي. ولكـن إسرائيـل لم تنجـرف بالـرد الفـوري عـلى الهجـمات الصاروخيـة العراقيـة، واكتفـت بالدفـاع عـن نفسـها مطلقـة صواريـخ «باتريـوت» الاعتراضيـة الأمريكيـة الصنـع.

وصلت بنا السيارة التي يقودها العقيد إلى مكان ما.

لم يعـرف التاريـخ شـخصاً مثلـه يتكتـم عـلى أماكـن تواجـده، مـن أجـل ضـمان أمنـه الشـخصي، وبسـبب ذلـك لم تعـرف عائلتـه أي مـكانٍ لـه، ولا تلتقـي بـه لأن ذلـك يتطلـب يومـا أو أكثـر، أحـدث فشـلا بينـه وبـين عائلتـه، خاصـة مـع أولاده الذكـور.. لم يأتمـن أحـدا عـلى حياتـه، وبـات يحميهـا بالاختفـاء.

المـكان الـذي وصلنـا إليـه لم يبتعـد عـن مركـز «بغـداد»، لم أتبينـه بعـد أن تـمّ رفـع الكيـس عـن رأسي، وتسـليمي إلى ضابـط حمايـة آخـر، قـرر أن يقـودني بتـؤدة مشـياً عـلى الاقـدام، ثـم وضعنـي أمـام رجـل فتشـني بدقـة متناهيـة.

كنـت مرتديـاً «البيجامـا»، التـي لم أرتـد فوقهـا شيء، ولم يكـن برجـليّ حتـى نعـال. خـرج «عبـد حمـود» بوجهـه المتجهـم، وقـال: أدخلـه، بعـد أن فتـح أمامـي بـاب غرفـة صغـيرة وقـال: «تفضـل السـيد الرئيـس ينتظـرك في الداخـل»، كنـت أنقـل قدمـي بصعوبـة، ولكنـي بقيـت أكابـر وأتقـدم. مـا أن حطـت عينـي عليـه حتـى واجهنـي بابتسـامته العريضـة، وقـال: «اسـترح عـلى الكنبـة التـي خلفـك»، نظـرتُ إلى عينيـه قبـل أن أجلـس أمامـه، عينـاه حمـراوان، وثمـة ابتسـامة عريضـة منبسـطة حـرص عـلى أن تبقـى مرتسـمة

على وجهه.. لم أعرف كيفية قراءة عينيه بدقة، فالرجل تتلمع في وجه ابتسامة طيبة، توحي لك بأنها عميقة، ولكنها مُسطحة. لم يصافحني، واكتفى بإيماءة من رأسه حتى أجلس أمامه، كي يخرق بنظره إلى أعماقي، نظرتُ إلى رجليّ الحافيتين لأجعله يتنبه إلى ما فعلته بي أوامره، تنهد بعمق ثم عاود النظر إلى عيني ثم إلى يدي، يتأهب نحوي.. كأنما ثلاث طبقات في باطن عينيه، وليس من السهولة التدقيق فيهما، الرجل الذي نزع روح كل من تحداه، طبقة ناعمة ظاهرة، وطبقة رمادية متباينة، وأخرى بعيدة فيها أوردة دمٍ قان.

كان ينظر إلي بتوجس أكثر مما كنت أنظر إليه، رغما عن كل ما حصل، بقيت ذلك المعجب بسرعة البديهة التي يتمتع بها، ثمة تحدي يوحي لمن يقابله مثلما يواجه النمر الصياد الشرس فريسته التي تحت مخلبه.. تعكس عيناه وداعة، لامعة، تُفهم كثقة مطلقة أن كل من حوله لن يتكافأ معه في هذا العالم كله، وفي نفسه ثقة مطلقة مادام مسدسه تحت يده.. إذ يتحسسه بين الحين والحين بخفة دون أن يلاحظه أحد، وعلى الدوام كان مستعداً لأن يطلق النار باتجاه أية حركة ليست بالحسبان.

رغم ذلك لم أكن متوجسا مما سيقوله، على الإطلاق إذ جعلت

عينـيّ تـدور في أرجـاء الغرفـة الصغـيرة التـي اختارهـا مكانـاً للقائنـا، غرفـة صغـيرة في بنايـة قصيّـة، شـباكها يطـل عـلى شـارع فـارغ، غـير مأهـول.

كأنــه أرادني أن أجلــس متكئــا عــلى الأريكــة حتــى يعــدل جلســته، كان يرتـدي روبـاً بلـونٍ فاتـح، وتحتـه بنطلـون أسـود، ولم أتعـود ان أراه دون ابتسـامة. وجدتـه يمـلأ لي كأسـا لمشـاركته بالاسـتمتاع بـشرب بضـع رشـفات مـن العـرق الـذي يعـرف جيـدا بـأني أحـبّ شربـه، وعـلى الطريقة البغداديـة، مـن وعـاء دائـري كبـير نسـبيا، يسـمى «كاسـة»، حيـث يمـزج فيـه العـرق بقليـل مـن المـاء مـع الثلـج، وبجانبهـما قدحـان صغـيران، كان الأول ممتلئـاً إلى النصـف، والآخـر فارغـاً نظيفـاً، قـد أعـده لي، راح يفـرغ فيـه المزيـج مـن الوعـاء الكبـير، وناولنـي إيـاه، رشـفتُ منـه عـدّة رشـفات صغـيرة، وأبقيـت القـدح بـين أصابعـي. بعدهـا دفـع أمامـي بضعـة أوراق خـسّ زاهيـة الاخـضرار، مـع علبـة اللبـن الرائـب الـذي أحـب، أخـرج مـن جيبـه سـيجاراً ماركـة «هافانـا» وقدمـه لي، ثـم دفـع باتجاهـي علبـة الثقـاب لتطولهـا يـدي.

قربــت منــي إحــدى النفاضتــين مــن أجــل ألا ينتــشر الرمــاد، ثــم أوقـدتُ سـيجاري، ونظـرت إلى الأرض كانـت بجانـب المنضـدة قنينـة أخـرى عامـرة بالعـرق «ماركـة أوزو» اليونـاني. الترقـب جعلنـي لم أعـرف

طعـما لـكل شيء، كانـت ابتسـامته تتسـع بـين الحـين والأخـر، ثـم نهـض إلى جهـاز مسـجلة صغـيرة كانـت هـي الأخـرى موضوعـة عـلى الأرض، وشـغلها بضغطـة زر واحـدة، وانطلـق منهـا يصـدح المطـرب العراقـي «حميـد منصـور». «مسيه العافيـة عليكـم يـا أهلنـا» كان في حالـة انتشـاء إلى درجـة لم أره فيهـا مـن قبـل، أثناءهـا كان يتفحصنـي بطرفـه الحـذر، كأنـه يتنظـر فرصـة مـا ليصنـع فيهـا مـا يريـده، وأردت ان أقـول لـه « قـل أنـت مـا تريـد يـا رفيقـي» كأنـه لم يمـل مـن التدقيـق فيـما حصـل فيَّ مـن خـراب، ثـم انطلقـت منـه قهقهـة عاليـة، وهـو يقـول: «اشرب يـا صديقـي.. اشرب فاليـوم خمـر وغـدا أمـرُ».

******

يومهـا اطلـع جلالـة الملـك بحضـوري عـلى الرسـالة الشـخصية، وعقب «المسـاعي سـوف لـن تنجـح، ومـع ذلـك طلـب منـي الملـك الانتظـار حتـى يتـم لـه المشـاورة مـع معاونيـه بشـأن الطلـب، عـلى الرغـم مـن أنـه عـلى يقـين أن الجانـب الأمريكـي لـن يقبـل بـما تقـدم، وكان الطلـب مقابلـة مبـاشرة بـين «السـيد الرئيـس» وبـين «الرئيـس الأمريكـي».

هنـاك اخـترت النـزول في فنـدق يقـع عـلى بعـد ١٠ دقائـق بالسـيارة مـن المطـار، حسـب رغبتـي لأنـه يوفـر إطـلالات رائعـة عـلى النهـر والمدينـة،

كان بـودي زيـارة تلـك القـلاع التاريخيـة الفخمـة التـي كانـت تسـتخدم كمقـرات للحـكام والأمـراء والأثريـاء في المغـرب، وتتمتـع بالزخـارف والنقـوش والألـوان الزاهيـة. يوجـد العديـد منهـا وتعـرف بالقصبـات المغربيـة الشـهيرة، بعضهـا يعـود إلى العصـور الوسـطى. سـمعت عـن قصبة «الغـور»، «تلـوات»، «تاوريـرت»، «عيـت بـن حـدو»، «الباهيـة»، و»قـصر البديـع»، ثـم «قـصر المهـدي».

تلـك مـن الأحـلام التـي لم تتحقـق بسـبب ضيـق الوقـت، إضافـة إلى ضيـق البـال الـذي بقـيَ مشـغولا بأهـل بيتـي خوفـا عليهـم مـن هجـمات الضبـاع.. أغلبهـم علاقتـه سـيئة بأهـل بيتـه، ويغـارون مـن أيـة علاقـة ناجحـة بـين أي فـرد وعائلتـه، يعبثـون مـع مـن يريـدون العبـث معـه، أراهـم مشـغولين بالراقصـات والمغنيـات أكثـر مـن انشـغالهم بوحـدة العائلـة وحسـن معاملتهـا. تحـدّ سـافر لا يمكـن إيقافـه، مكالمـات تزايـدت وتيرتهـا، أخـذت تتزايـد أثنـاء غيـابي عـن البيـت، يراقبـوني خطـوة خطـوة، حتـى بعـد تركـي المنصـب، وكأنهـم يشـمتون بيْ حيـث لم يبـق لي سـند، الأولاد صغـار، وليـس بإمـكان الأخـوة والعشـيرة التصـدي بوجـه النفـوذ السـافر.

ففـي حـالات اليـأس يحتـاج الإنسـان إلى صديـق قريـب منـه يواسـيه في

محنتـه، ولم أفكـر بأَحـد مـن خـارج الصداقـة المتينـة سـوى صديـق طفولتـي «جبـارة»، الـذي سـاعدني كثـيرا بموضوعـة اسـتيراد الكامـيرات، عندمـا اتصـل بـشركات ألمانيـة، وتـم عقـد أكثـر مـن صفقـة لتزويدنـا ببعـض ممـا كان يحتاجـه عملنـا.

تعرفـت عليـه أثنـاء دراسـتي الإعداديـة في سـامراء، ولم نفـترق، غالبـا مـا التقينـا أيـام الدراسـة في بغـداد في مقهـى قريبـة مـن كليـة الهندسـة التـي كان مواظبـا عـلى الدراسـة وكانـت تقـع في منطقـة بـاب المعظـم القريبـة مـن مبنـى الأقسـام الداخليـة التـي تـأوي معظـم الطلبـة القادمـين مـن المحافظـات، كان مخلصـاً للدراسـة وملتزمـاً غـير مهتـم بالسياسـة عـلى الإطـلاق، ومـن بـين المتفوقـين في قسـم الهندسـة الكهربائيـة حتـى جـاءت إليـه الفرصـة إلى ألمانيـا عـام ١٩٦٦ مـن قبـل الحكومـة العراقيـة في وقتهـا، وقـرر تـرك البلـد الـذي دمرتـه الصراعـات السياسـية، وجعلتـه خرابـا كـما يقـول وتـرك المـاضي خلـف ظهـره مـن أجـل المسـتقبل بالعمـل ضمـن شركـة مقـاولات إنشـائية يملكهـا شـقيقه الأكـبر، مقرهـا «برلـين» حينـما كان يقيـم فيهـا قبلـه بعـشر سـنوات.

اسـتقر مبكـرا هنـاك، ورفـض جميـع دعـواتي بالحضـور إلى العـراق، ومـا أن عـرف إني في دولـة المغـرب حتـى صـار عنـدي، إلى بقيـة الإجـازة.

ولم يكـن مصادفـة عندمـا نصحنـي المغـادرة مـع أهـلي مـن العـراق، كأنـه متيقـن بـأني سـأواجه المتاعـب والمضايقـات الكثـيرة خـلال المرحلـة المقبلـة، ولم يكـن جديـدا عـليّ ذلـك، ومـا إقالتـي مـن الوظيفـة إلّا مقدمـة لتصفيتي، ولا خيـار أمامـي غـير البقـاء في بغـداد، وانتظـار الآتي مـن الأيـام»، «لا يسـمح لأحـد بالسـفر دون أن يـترك عائلتـه بـين أيديهـم، لتكـون الضمانـة لعودتـه، وعليـه أن يفكـر بالصغـير منهـم قبـل الكبـير»، قلـت لـه ممازحـاً: لا تنـس أننـي رجـل مطلـوب للشـيوعيين والقوميـين إضافـة إلى حـزب الدعـوة، «في رقبتـي دمـاء كثـيرة».

أمضيـت معـه وقتـا طيبـا كأنـما ذلـك الوقـت الـذي كان مكمـلا لأيـام طفولتنـا أيـام الدراسـة وشـقاوتها التـي لم نذقهـا إلّا عـلى عجـل.

******

كنـت آخـذ كل كأس يناولنـي إياهـا، ونشربهـا معـاً، كان يحـرص عـلى رنّـة الـكأس في الـكأس ويقـول «في صحتـك»، وكـدت أقـول «أي صحـة؟ يـا رفيقـي القائـد وأنـت لم تبـقِ لي منهـا شـيئا»، ارتشـفت الـكأس بدفعـة واحـدة للتخلـص مـن الألم، ولم أسـعَ إلى تنـاول أي شيء بعدهـا، كان يشرب بزهـوٍ، ويضحـك بصـوت عـال، وفي لحظـة مباغتـة تـرك كأسـه بعيـدا عنـه، وقـال:

أوقعـت نفسـك في الفـخ، فلـم يكـن أحـد يعلـم بأنـك صاحب حسـاب سري في «ألمانيـا»، وكان مـن الممكـن ألا يعلـم بـه أحـد، ويبقـى سراً مطويـاً، أنـت خـير مـن يعلـم أن أيّ سرّ حتـى ولـو كان بـين اثنـين يصبـح خـبراً مشـاعا، وقـد خـرج ذلـك الـسرّ مـن لسـانك منـذ الأيـام الأولى مـن احتجـازك.. في البدايـة كانـت عقوبتـك مقـررة ألا تتجـاوز الحبـس التأديبـي بسـبب لسـانك حـول دخولنـا الكويـت، ولم يكـن مقـررا توقيفـك أكثـر مـن يـوم أو يومـين، أو حتـى أسـبوع عـلى الأغلـب، ولكنـك لم تحسـب أن خطـأ الشـاطر بألـف، خاصـة بعدمـا طلبـت أن تعمـل توكيـلا عامـاً عـن امـلاكك إلى زوجتـك، أثـارت الشـكوك، وطلبـت منهـم اسـتغفالها بـكل مـا هـو متـاح، للتقـصي عـن غرضـك مـن الوكالـة، وبعـد التحليـل والتحـري عـن حسـابك الـسري، وجدنـا مودعـات مجموعهـا مبلغـا قـدره «٢١ مليـون» مـارك المـاني.

وعليـه «يـا رفيقـي» فأنـت معفـي لأنـك صاحـب أفضـال عـليّ، سـبق أن جازفـت بحياتـك مـن أجـل إنقـاذ حيـاتي أكثـر مـن مـرة، أعـدك أني لـن أضـع توقيعـي عـلى قـرار إعدامـك، ولكنـي حولـت أمـرك إلى «بـرزان» أخولـه بـما يـراه مناسـبا لـك.. انتهـت المقابلـة!

لم أناقشـه مثلـما توقـع، بعـد أن تأكـد لي المصـير المحتـوم. بـادرتُ

بالنهوض من الأريكة بكل ما أمتلك من قوة، وقبل أن ينادي على حراسه، توجهت إلى الباب، دون أن أسمعهُ كلمة.

******

تناولت ورقة فارغة من بين الأوراق المقدمة لي من أجل الإجابة التحريرية على أسئلة التحقيق، ورحت أكتب:

- الأغلب منا سبق له وأن قرأ عن «بيريا» الذي كان معروفا بدهائه وسعة أفقه، والذي استطاع أن يطور كثيراً في هيكلية المخابرات الروسية، وفقاً لمتطلبات مصالح بلده الموزعة في الشرق الأوسط. وقد ابتكر رتبة عليا، وسماها «كومسار» جنرال لدولة الأمن، وهي أعلى رتبة عسكرية قانونية في نظام الشرطة السوفيتية ذلك الوقت والتي تعادل رتبة «مارشال أول»، وأيضا جعل من هذه الرتبة أعلى من قادة الدول، المنضوية تحت جناحه. وله الفضل في جعل العلماء يتصدرون الدولة العميقة التي تفوق الدولة الظاهرة، في قيادة البلد، حسب الكفاءة، وأصبحت القيادة التي يرأسها تعتمد «التكنوقراط». وبدوره وضع خطة ناجحة مكنته بواسطة مؤتمنيه من العلماء الألمان «المجندون لصالح السوفييت المزروعين في أمريكا» أن يسربوا له معظم تفاصيل صناعة القنبلة النووية الامريكية، اعتمدوا على كاميرا تُدعى

مينوكس (Minox)، وهي كاميرا جاسوسية صغيرة الحجم تستخدم فيلماً مقاس ٨ ملم. وقد ابتكرت هذه الكاميرا في عام ١٩٣٦ من قبل «فالتر زابه»، واستخدمت كثيرا من قبل الجواسيس في مناوشات الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة، وفي عام ١٩٤٧م تمّ بفضلها تصميم القنبلة النووية السوفيتية بمساعدة العلماء المتعاونين كمخبرين الذين استنسخوا المعلومات الكاملة عن البرنامج النووي الأمريكي، وبات «بيريا» العقل المشرف على صنعها، وأُنجزت عام ١٩٤٩م. حيث جاءت مشابهة للقنبلة الأمريكية التي أسقطت على المدينتين اليابانيتين «هيروشيما، ونكازاكي» عام ١٩٤٥م.

******

أعادوني إلى زنزانة رقم «واحد» التي في عمارة السيارات، بعد أن ألبسوني كيساً كبيراً يصل حتى منتصف جسمي، ثم أدخلوني البناية بواسطة الكرسي المتحرك، يضمنون سرعة إعادتي، ويبدو لي أنه أوصى بعدم مواصلة حفلات جديدة، وتركي في قائمة المنتظرين.. حتى يعود صاحب الأمر والشأن من سفره، ليأمر بالحرفين «قاف»، «دال». قتل ودفن، لا أدري كيف خطر ببالي السؤال العربي القديم «ما الفرق بين الشوق والاشتياق؟ وجوابه: الشوق يسكنُ باللقاء. والاشتياق لا

يسـكن باللقـاء، بـل يزيـد ويتضاعـف».

******

استولت المخابـرات الأجنبيـة عـلى جميـع مواطـن القـرار في الدولـة العراقيـة. تمكنـوا منهـا بواسـطة دخـول المستشـارين كخـبراء تقنيـين، والعسـكريين كمدربـين عـلى اسـتعمال الأسـلحة الحديثـة، والطياريـن. استطاعوا بواسـطته كشـف البطانـة الداخليـة الكاملـة للبلـد بتلـك الحجـة، مـن أجـل بنـاء دولـة تعـود بريعهـا الكامـل إليهـم، كذلـك حجـة تعزيـز قـدرات البرنامـج النـووي.

وكان الكوميسـار «يفكينـي بريماكـوف» مهنـدس اغتيـالات العلـماء العـرب، خاصـة في مجـال الطاقـة النوويـة، وتـم الإيحـاء بـأن إسرائيـل المسـتفيدة الوحيـدة مـن إزاحتهـم، وينفتـح أمـام العلـماء الاسـتخباريين في ابتـزاز الحكومـة العراقيـة والاسـتمرار بإقناعهـا بـأن البلـد بـات عـلى شـفا الحصـول عـلى حلمـه النـووي. الـذي أصبـح يشـبه العظمـة المعلقـة أمـام الكلـب الـذي يجـرّ الزحافـة، كلـما تقـدمَ تقدمتـهُ العظمـة فيركـض خلفهـا يـكاد أن يطولهـا لكنـه لـن يطولهـا أبـداً. وكأنـما القيـادة متناسـية أن الـروسي لا يبيـع إلا مـن أجـل تنظيـف مخازنـه، وتصريـف بضاعتـه القديمـة «صواريـخ سـكود الروسـية» اسـتخدمها في الحـرب منـذ عـام ١٩٤٥م.

وباتـت خارجـة عـن الخدمـة بعـد أن صنعـوا صواريـخ أكثـر تطـورا، وقـادرة عـلى أن تحسـم أي حـرب ولم يسـاعدونا بهـا في حربنـا الـضروس مـع إيـران».

الـروسي يفتعـل الحـروب بـين جميـع أذرعـه، التي تشـبه الـتروس ناقلـة الحركـة أحداهمـا يـدور عكـس الآخـر، ولكنهـما ينقـلان حركـة لجهـاز واحـد، لتصـب النتائـج في صالحـه. ثمـة انقلابـات حـادة قـد حدثـت بـين اليمـين واليسـار، وكلاهمـا مـن جسـد واحـد. فالحـرب التـي تخوضهـا أي بلـد مـن بلدانهـا تعـزز مـن قـوة نظامهـا داخـل الدولـة، ومـا كانـت الحـرب العراقيـة الإيرانيـة إلا حـربَ فصيـل روسي ضـد فصيـل روسي آخـر، ولم تكـن شرقيـة أو غربيـة، والغـرب كان في البدايـة منشـغلا بالأمـر، حتـى بـات يجنـي لنفسـه النتائـج، والبلـدان تخـسر مـن أرواح أبنائهـا.. بقـيَ الـروس يطالبـون «القيـادة» بـشراء بضاعتهـم، وبضاعتهـم في مواصفاتهـا دون البضاعـة الألمانيـة، يشـترون النسـخ الجديـدة لأنفسـهم، ويتخلصـون مـن النسـخ القديمـة بتحويرهـا كنسـخ حديثـة ويتـم ببيعهـا إلينـا، بأسـعار مضاعفـة..

كـم هـو مضحـك المثـل الـروسي الـذي يقـول: «مـن الأفضـل لـك أن تسـتخدم البغـل لأنـه لا يناقـش، كونـه يعلـم مـن أيـن طريقـه». لذلـك

اختيرت بعناية بالغة شخصيات الدائرة القريبة من «السيد الرئيس» وكانت أغلبها مترهلة، تتسابق من أجل الطاعة، ولا علم لها سوى الطاعة وكسب الرضا، ليكون «القائد العظيم الذي يقود شعبه إلى الذرى».

مثلا «صهره» شاب في بداية حياته لم يحصل على فرصة لإكمال الدراسة الابتدائية، عمل كحال أقرانه في الزراعة، ولما جاءته الفرصة تطوع إلى الجيش، مقتدياً بأعمامه «علي حسن المجيد، عبد حسن المجيد» الأول، كان عريفا في سلك الشرطة، والثاني كذلك. تدرجا بواسطة الرتب والمناصب حسب الولاء.

تطوع «حسين كامل» إلى الجيش، ثم نسب ليكون في صحبة عمه «حسن المجيد»، ويقول ملفه أنه منذ أن كان في الثانية عشرة يساعد خاله في تصفية المتنفذين الذين كانوا يعرقلون مسيرة الحزب في البواكير الأولى، ومنذ يفاعته أظهر براعة ودقة في التصويب بواسطة المسدس، وبقيَ قريبا من خاله حتى أُعطي رتبة ملازم، وتم نقله إلى مديرية الأمن، ولم يكن يظهر أية كفاءة في الجهاز الاستخباري، بعدها تم منحه رتبة ملازم وتحويله إلى منتسب في حماية وزير الدفاع «عدنان خير الله» الذي قبل به، «خطيّة ما كو واحد يريده»، ولم تظهر له أي

نشاطات حقيقية سوى «أن يسمع النكات ويحفظها، ويعيد حكيها لكل من هبّ ودبّ»، وبحسب تقييم «عدنان خير الله» تم نقله إلى سرية حماية المجمعات السكنية، بعد أن تدرب على فنون القتال الأعزل، كلفه «السيد الرئيس» بتدريب بنات «السيد الرئيس». بعد أن أشاد به «عمه»، وتم تقريبه إلى فصيل الحماية الخاص، ومن هناك انطلق في الصعود الصاروخي، وجاءت لصالحه التقارير بحسب تقييم «الكومسار» الشخص الأمثل لتولي مناصب مهمة في وزارة التصنيع العسكري، لتسهيل التعاملات التجارية مع «روسيا»، بما يخص جميع الأسلحة من دبابات والطائرات وحلم العراق الإستراتيجي بحصوله على المفاعل النووي كان من بين أكبر أبواب الابتزاز لثروات البلد.

وعلى الرغم من ذلك بقيت شخصيته غير مقنعة مثيرة للتهكم والسخرية، وخاصة تلك التي تخص جهله التام باللغة الإنكليزية حول "steam« التي كانت من بين إحدى هفواته الفاضحة والتي بسببها عمدَ إلى تعميم مشدد، بتوقيعه موجه إلى جميع العاملين في وزارة الصناعة والتصنيع العسكري مفاده «ممنوع منعا باتا استخدام المصطلحات الإنكليزية والأجنبية في التعاملات التوضيحية مع المسؤولين خاصة». أثناء صولة «يعمر الأخيار ما دمره الأشرار»:

- أحد الفنيين العاملين استخدم في شرحه للسيد الوزير مصطلح «steam» دون أن يذكر له معناها بالإنكليزية «بخار ماء»، وما أن سمع منه أنّ «الستيم» ناقص، وحتى نبر كأنه العارف وبصوت عال أمام الفنيين جملته المشهورة، «ممنوع التأخير ما دام صرف المال مفتوح، اشتروا من الأسواق المحلية فوراً كل الكميات المتاحة من مادة «الستيم» ولا توقفوا العمل.

******

فاجأني العقيد «فلان»، بالدخول عليّ في زنزانتي، لم يكن جسدي مستعدا لأي حركة بقيت متخشبا، وبصعوبة استطعت الوقوف، احتضنني وقبلني بشوق قائلاً: «والله يا سيدي ليت بأيدنا شيء»، صعب عليَّ التنفس، مع ذلك استطعت أن أقول له بشفتين مبتسمتين:

- مؤكد اليوم أربعاء؟

قال بعجالة مضطربة:

- لا.. معاذ الله يا سيدي.. إن شاء الله عمرك أطول من عمرهم.

قلت:

- أنتظر يوم الأربعاء بلهفة.

وأضاف:

- كلفنا بتجهيزك للذهاب إلى العوجة.

قلت: «معنى ذلك البحث عن متطوع من بين أهلي يتم تكليفه بوضع رصاصته في رأسي».

******

توقفت السيارات الثلاث أمام قاعة المناسبات التي تتوسط قرية «العوجة». والتي خصصت لتقام فيها أغلب المناسبات الاجتماعية كالأعراس والمآتم والمحاضرات، إضافة إلى شاشة سينما واسعة يمكن فيها عرض الأفلام، بمختلف أنواعها التي امتلأت بأغلب الأقرباء.

تقدمت الباب الواسعة للقاعة المؤدية إلى الباحة المرتفعة المتصدرة القاعة، ولم أكن أقوى حتى على صعود الدرجات المرمرية الثمان، من جراء حفلات التحقيق، بات الجسد واهناً، ولم يعد سليما كما كان.

واجهت الجمهور الحاضر في القاعة، بعنين غائمتين لم تميز بين البعيد والقريب، وقد توسطتها منصة وضعوا فيها كرسيين، الأول جلس عليه «المدير العام». لا أعرف كيف حلقوا لي ذقني وكيف حمموني وجعلوني أرتدي حلة جديدة بدلاً من حلتي التي كانت قد

جـرت عليهـا حفـلات التعذيـب.

كان كل شيء في ذهنـي قـد اكتمـل، يبـدو لي أنهـم قـد وصلهـم قـرار إزاحتـي مـن الصـورة بشـكل نهائـي، كنـت أحـاول أن أجـبر نفـسي عـلى الابتسـام، لأجعـل مـن النـصر الـذي يتفاخـر بـه «السـيد العـام» إلى هزيمـة، ولكنهـا كانـت في ذهنـي تتراقـص وتصاحبهـا رغبـة في أن أتقيـأ كـي أرتـاح قليـلاً.

كان «سـبعاوي» يـشرح للحضـور كيـف تحـول ابنهـم مـن بطـل مقـدام مخلـص لبـلاده إلى عميـل خائـن لمبادئـه، وراح يـسرد لهـم سـيرتي الحزبيـة والنضاليـة ومـا حققتـه مـن إنجـازات ونجاحـات تصـبّ في مصلحـة الوطـن منـذ أن التحقـت مبكـرا بصفـوف الحـزب منـذ عـام ١٩٥٨م. الخ..

وبعدهـا أخـذ يقلـب في ملـف آخـر، ويقـرأ عـلى الأسـماع شـهادة الشـهود الزائفـة الملفقـة. شـهادات مكتوبـة بأسـلوب واحـد، تتشـابه فيهـا البصمـة وكأن عقـلاً واحـداً قـد كتبهـا، ووضـع بسـمته المسـتفزة عـلى كل إشـارة فيهـا، وطلـب مـن الحضـور تأييـد كل مـا قـرأه لهـم، والأغلـب منهـم بـدأ يتذمّـر مـن طريقـة قراءتـه الفجّـة، والتـي تعمـدت أن تظهـر الغِـل المقيـت، أكثـر ممـا يعرفـه الجميـع عنـه، كأنـه كان يحاكـي أناسـا سـوف يجارونـه حتـى الحـرف الأخـير ممـا يريـد إيصالـه، ولم يتوقـع أن يقاطعـوه

إلى درجـة الاسـتفزاز، وهنـاك أصـوات ارتفعـت بنـبرة عاليـة مطالبـة إيـاه بالتوقـف عـن مـا يريـد أن يصـل إليـه، أخـذت الهمهمـة تتحـول إلى احتجـاج واسـع بـين الجمهـور الـذي يسـتمع بشـغف مشـوب بالاسـتفزاز، حتـى قالهـا رجـل مسـن:

- مستحيل.. وكفى هراءً.

قال آخر يسنده:

- اتركه يتكلم.

لكنـي رفعـت الدشداشـة لأجعـل مـن أخـوتي يـرون آثـار التعذيـب البليغـة التـي نالـت كثـيرا مـن رجـليّ. وأن « السـيد العـام» أوصـل لي تهديـده، بعـدم النطـق بـأي كلمـة أمـام أي أحـد، وأنـه لـن يكتـف بقتـلي وإنـما بقتـل ابنـي «عـلي» أمامـي.

قـال آخـر: «جئتـم لنـا بـه مهدمـا»، كانـت الأصـوات تتصاعـد فـوق بعضهـا البعـض، وكأني كنـت لا أرى سـوى أبنائـي الذيـن أجلسـوهم في الصـف الأول، ومعهـم أخـوتي، وعـدد غفـير مـن أقاربنـا. ينظـرون إليَّ، يدققـون النظـر، رجـلاي محززتـان مـن الأسـفل، وتوضـح عليهـما التـورم الشـديد، أختنـقُ كلـما حاولـت جـرّ النفـس، حالـة أكثـر مما يرثـى لهـا، أقاوم

وأتنفس، أواصل الابتسام، ولا أقوى على شيء.. كنت عاقدا العزم على إفشال العرض بالابتسام، أحاول أن أجعل في الابتسامة موقفا مضادا، يحمل رسالتي إلى التاريخ الجمعي أني لست المظلوم، وإنما الظالم لنفسه.

كنت مستعداً لمواجهة كاملة، وأن اكشف الأوراق التي يخافون منها وجميعها كانت في حوزتي، وما تزال صالحة للاستخدام، فاعلة. لأن الحكاية اتخذت طابعها الحقيقي والمباشر. حكاية تحوي على السرّ القاتل، ولابد أن لا تبقى في طيّ الكتمان، وتأتي على حياة كل من يعرف به، لأن كل من ينتمي إلى أي جهاز مخابرات في العالم تقوم بنيته على السرّ، وكلما كانت تلك المعلومة خفيّة، ومطموسة تعيش، ويعيش معها صاحبها دون أن ينال منه أي جهاز مخابرات في العالم، لأنها مهنة الأسرار المطموسة في خفايا العقل الباطن، هناك طبقات رفيعة المستوى، عميقة وباطنة في تلك الأجهزة، وتستثني الموظفين العاملين داخل دولتهم، لأن ولائهم لمن يدفع لهم، ولكن تلك الطبقة الرفيعة هي التي تدفع، لأن جل طموحها أن تبقى في قمة السلطة، بل وأكثر.

تشتري بقاءها، تلك تدفع لأنها تحولت إلى آلهة وتهب عبادها التي تنظر إليها بعين العابد للمعبود، حركية توافقية من تبادل المصلحة،

المعبود تحميه دول تستثمر قوتها من المال المدفوع لها، يغدق عليها بحجة أو بأخرى، مصالح متداخلة لا تكاد تظهر إلا بالشكل المراد له، كونها مكافآت لابد من أن تصل إلى اصحابها، وأصحاب أصحابها عقود مكشوفة لكن فيها متانة أخرى تكون سرية الوصول، الرأس في السلطة كل همه أن يبقى رأساً، وأن لا يرى منافساً له، ومن المستحيل أن يسمحوا لأحد غيره أن يعتليها، وإن اعتلاها غيره بانقلاب يعني فشل جهاز المخابرات في الكشف عن المعلومة، فشله أمام جهاز مخابرات دولة أخرى، قد أعد وتمكن من الفوز على قرينه، لذلك وجب الانضباط، ووجب الكتمان والسرية. فهذا العالم يحتاج إلى الكثير من التلاعب والمكر.

- «كل منهم دائم التعرض إلى ابتزاز عليه أن يدفع حتى يعرف، فهم من يقومون بتحذيره ثمة انقلاب قد يحدث من الدائرة القريبة جداً، ادفع ولا تتأخر في تسديد ديونك!»

هذا السر إن فضحت تفصيلاته، لأصدر رأس النظام أمراً بإعدام جميع الحاضرين الذين يستمعون إلى تفاصيل الحكاية، واعتبارهم خونة يهددون أمن رأس الهرم.

هكذا مواجهة تتعلق بمصيرهم، ودولتهم، وكل ما خفي عنهم.

يعلمون أني ما إن أبدأ الحديث حتى يصير الإصغاء إليّ وتنقلب الطاولة على رؤوسهم ورؤوس مَن يدعمهم من وراء الستار. لكني لابد من أن أنقذهم بأن أواجه الموت بالصمت. ففي أغلب الوجوه استنكار دفين، جعلني أتريث وألا أجيب إلّا بكلمة «نعم» وأنا أعلم أني أواجه الجمهور للمرة الأخيرة. حالة الرفض في وجوه كبار السن من الأعمام والأخوال وبعض قليل من الأبناء.

كأنهم طلبوا الحضور لتكون مقدمة وافية عن ماهية المجتمعات المعقدة وتعريفها، عن ماهية الانهيار وتعريفه، ذهني يمور بما قرأته عن حالات عشرات الحضارات عبر الزمان والمكان ويستعرض نظريات انهيارها وينقدها بمرارة، ثم يقدم أطروحته عن أسباب انهيار دولة القرية متبوعة بثلاثة اعتراضات عن حالة دولة «التلفيق» لثلاث مراحل مختلفة، بدا لي أن هذا النظام يفصح عن حالة واضحة كعلامة بائنة من علامات انهياره، يحاول تطبيق نظرية الدولة القوية العصيّة التي لا يمكن لأحد هزمها، حكاية أمام الناس تناولت الواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي للمجتمعات العربية، خاصة في ظل التغيرات الناجمة عن اكتشاف النفط والتدخل الاستعماري.. كأنما كتاب تتكامل سطوره بإيجاز وتنبثق من ذهني توقعات مستقبل هذا العالم.

****

وأن الإنسان لم يكن سوى كائن خيالي..

عتمةُ الزنزانة تميدُ بي على وقت يستطيل دون أن أتبيّن منه أملاً سوى أنني ميت، وعليه أن يتعامل مع الموت بحسم. الانتظار لم يعد من ورائه طائل. فكرتُ أن أعمل من البيجاما حبلاً، وأشنق نفسي كما يفعلها الكثيرون الذين كانوا يكترثون بحفلات التعذيب، حيث لا وقت بيني وما حولي، لم أعرف ساعة الليل من ساعة النهار، وكأنما لست معنياً بشيء حتى رجليَّ اللتيّن باتتا متورمتين، لم أعد أفكر فيها، بعد ما بات يصعب عليّ دخول الحمام. دوران مخزٍّ أثار تعاطف البعض من الضباط، الذين يدينون بالولاء لضمائرهم، أكثر مما يحسبون للسياقات القاسية. صاروا يناولوني سرّا قطع الشاش والقطن وبعض المعقمات، صرتُ أرى أن الواشج الإنساني أشجع الصفات التي لابد أن يتمتع بها رجال المخابرات، كونه يقيم جسراً مع المتهم من الودّ، لو عمل به المحققون لكانوا قد وصلوا إلى أفضل النتائج. إزاحة غمامة الغباء تتطلب شجاعة، غمامة الطاعة العمياء التي لن تقود أحدا إلى مجده.

مع جدران زنزانتي اجترّ الذكريات، اقرأ ما أكتبه وأكتب ما أريده

أن يكتب في خيالي سابحا إلى الأبعاد التي أستطيع الوصول إليها. هدنة انتظار توقفت فيها حفلات التحقيقات، صرت أعرف أوقات النهار من خلال وجبات الطعام، إنْ قدموا لي شوربة العدس عرفتُ أنه الصباح وإنْ قدموا لي الأرز مع مرق البصل أعرف أنه الظهر ومع التمرات الثلاث وقطعة الخبز أعرف أنه المساء.

لم أتكلم مع أي منهم أجدهم متعاطفين معي، وينقلون لي همساً كل ما يجري خارج الزنزانة، بعد توقف حفلات التحقيق، ودخل الأمر طور الانتظار، عسى أن تكون عودة «برزان» من مهمته ذلك الأمل الذي يوصلني إلى الرصاصة التي سوف تخرق جمجمتي.

وقبل أن يعود من سفره طلب هاتفياً من شقيقه إشراك ملفي مع ملف صديقي «صابر النجار» الذي أخذوه غدراً إلى المنيّة قبل أشهر من احتجازي، بتهمةٍ تجارية حوّرت إلى قضية التخابر مع جهة أجنبية، لتصبّ في مصلحة صهر «السيد الرئيس».

******

صداقة حقيقية، ومتينة، تلك التي توطدت بيني وبين الطيار «صابر النجار» عندما كان يتلقى دورة متقدمة في الطيران مع مجموعة من زملائه الطيارين في العاصمة الروسية، يوم كنت المسؤول المباشر

عـن تنظيـمات الحـزب في قـارة «أوربـا»، كنـت مـن الذيـن يقدمـون العـون لمـن يتطلـب عونـه فيـما أسـتطيع عليـه مـن تسـهيلات كانـوا بحاجـة إليهـا. وعــزز صداقتــي بــه أنــه كان يرتبــط بصديــق حميــم مشــترك بينــي وبــين «جبـارة»، مـن سـكنة الأعظميـة في بغـداد، امتـدت إلى تواصـل عائـلي بـين زوجتـي وزوجتـه الألمانيـة، التـي اسـتطاعت أن تتعلـم العربيـة وتنطقهـا بلكنـة بطيئـة بعـض الـشيء كحـال أغلـب الأجانـب المتعلمـين للعربيـة، وحسـب وصـف زوجتـي، وقـد ارتبطتـا بصداقـة وديّـة: - اللكنَـة التـي تتحـدث بهـا زوجـة «صابـر» تشـبه أفـلام الكارتـون المدبلجـة مـن الألمانيـة إلى العربيـة «بربـا الشـاطر أعظـم سـاحر».

وفيـما بعـد أعجبنـي عـدم امتثالـه إلى التفريـق بينـه وبـين زوجتـه، بعـد أن عمـم بصرامـة عـلى جميـع العراقيـن عـدم السـماح بالـزواج مـن أجنبيـة، نعتـهُ بالقـرار الظـالم، وأنـهُ لـن يخسر حبيبتـه وأم أولاده الثلاثـة. ثـم حـزم أمـره وتـرك وظيفتـه، مسـافرا بعائلتـه إلى «ألمانيـا» غـير مبـال بالنتائـج المرتبة عـلى ذلـك القـرار، بمنعـه مـن العـودة إلى العـراق، وزيـارة أخوتـه وبقيـة أهلـه.

ورغــم ذلــك لم يقطــع عنــي رســائله واتصالاتــه الهاتفيــة، وكذلــك أنـا بقيـت عـلى صلتـي بـه، حتـى عندمـا عـدت إلى «بغـداد»، واسـتلامي

مسـؤولية مديريـة الأمـن العامـة، كنـت أتصـل بـه بـين الحـين والآخـر، أعلمنـي أنـه تآلـف مـع بيئتـه الجديـدة وحصولـه عـلى الجنسـية الألمانيـة. وأقـام علاقـات طيبـة مـع شركات عـادت عليـه بالمـال الوفـير. وبمعرفتـه الواسـعة اسـتطعت التعاقـد عـلى اسـتيراد مجموعـة مـن الأجهـزة الدقيقـة التـي كانـت ألمانيـا تمتـاز بصناعتهـا، خدمـة لبلـده، بالحصـول عـلى عـروض تجاريـة مهمـة، قدمـت لنـا أفضـل مـا لديهـا.

بعـد مـضي سـنوات رأيـت أن أتوسـط لـه بالحصـول عـلى موافقـة لزيارة «بغـداد» وتحققـت عندمـا اسـتحصلت لـه موافقـة «السـيد الرئيـس»، ومعها الترحيـب لأنـه كان يعلـم بـما خـدم بـه وطنـه، وعـاد يـزور بلـده وقتـما يحـب. مازلـت أتذكـر اللازمـة التـي يقولهـا كلـما جلسـنا إلى مائـدة شراب «لا يُسـكرنا إلا الهـمّ والوجـه الصبـوح».

وقـد علمـت أنـه أصيـب بالشـلل في نهايـة فـترة التحقيـق، قبـل أن يُعـدم.

******

لا يوجـد سر عـلى الإطـلاق مـادام صاحبـه يتنفـس الهـواء، تلـك الجملـة التـي كانـت سرّاً مـن أسرار نجـاح «برزيـن الـروسي» الـذي يعـده التاريـخ أقسـى ضابـط تحقيقيـات عرفتـه البشريـة، ذاتـه مكتشـف غرفـة الرياضـة،

«الإنسـان مهـما كان متدربـاً عـلى أن يكـون كتومـاً، الاحتجـاز يجعلـه سـهل المنـال، يكـون كالمـاء مبـذولاً لشـاربه، ويمكـن بألـف طريقـة أن تسـتخرج منـه المعلومـة الغائبـة، حتـى اسـتطاع أن يكتمهـا لمـدة، لكـن ليـس إلى الأبـد».

حتـى الصداقـات المتينـة يمكـن أن يطالهـا الاغتيـال، خاصـة بإفشـاء أسرارهـا، إلى طـرف ثالـث، وقـد حـدث بعـد تـمّ تسريـب نسـخ مـن كشـوفات القوائـم الخاصـة بالصفقـات التجاريـة الجاريـة مـا بينـه وبـين الحكومـة العراقيـة، وأوقعتـه بمشـكلة مـع هيئـة الضرائـب الألمانيـة، التـي جرّمتـه بالتهـرّب مـن دفـع مـا عليـه، وجعـل ذلـك منـه مذنبـا تحت طائلـة القانـون الألمـاني.

****

صعـود الجيـل الثـاني إلى واجهـة الحكـم ضيّـع حلـم أن يكـون العـراق عراقـاً مدنيـاً نفتخـر بـه بـين دول العـالم، واسـتحال ذلـك إلى ذكـرى باهتـة، بعـد أن تبايـن الـصراع الخفـي بـين أفـراد عائلـة «السـيد الرئيـس» مـع جميـع العوائـل المرتبطـة بهـا. خاصـة بعـد بـروز شـخصيات قلقـة تصـارع حـول المكاسـب الشـخصية.

ظاهـرة «عـدي» المدلـل مـن أمـه والـذي لم يحصـل عـلى الإشراف الأبوي

المباشر، الـذي انطلـق متوحشـا، مشاكسـا، يقـضي يومـه في العبـث مـن الفتيـات اللـواتي في عمـره، يـشرب ويقيـم الحفـلات الماجنـة، باتـت تسـبب الكثـير مـن الإحـراج لوالـده مـع أعمامـه، وأخوالـه. ولم يتحقـق لـلأب أن يـرى ابنـه سـوياً بـين أقرانـه في يـوم مـن الأيـام، مـن بعـد دلال الأم لـه، والـذي أعطـاه الثقـة المطلقـة، إن كل مـا يفعلـه بإرادتـه ومزاجـه النـزق بيقـين أنـه يمثـل الإرادة العراقيـة، وأن كل مـن حولـه هـم خـدم وحشـم يخدمونـه كـما تخـدم النـاس سـيدها.

ولم يختلـف عنـه شـقيقه «قـصي» الـذي مكنـه دعـم أبيـه مـن ذلـك الـصراع تحـول إلى صراع اقتصـادي، بعدمـا أرادت العائلـة أن تضمـن مسـتقبل أبنائهـا.

«أم عـدي» تكـن كرهـاً لأخـوة صـدام خاصـة «بـرزان»، الـذي ورثتـهُ لابنهـا. ممـا أفشـلت رغبـة «صـدام» في اسـتمرار زواج ابنـه البكـر «عـدي» مـن «سـجى» ابنـة «بـرزان» التـي هـي ابنـة اختهـا «الهـام»، ولم يـدم سـوى يـوم واحـد بسـبب الكراهيـة التـي تتبادلهـا العائلتـان، وتوضـح أكثـر بعدمـا أراد بالمثـل زواج ابنـه «محمـد» مـن «رغـد» تصـدّت لـه «سـاجدة خـير الله طلفـاح»، ودفعـت «حسـين كامـل» للتقـرب مـن «السـيد الرئيـس»، كـي يحظـى بمباركتـه، وكادت صحـة «بـرزان» أن تنهـار بسـبب غيضـه مـن

الدخيـل الـذي صـدع علاقاتهـما.

بـات البعـض يزيـح البعض في دولـة العائلـة والقبيلـة والمنطقـة الواحدة، وأن تلـك الزيجـة قـد أحدثـت تصدّعـات بائنـة، خصوصـا بعـد أن أثـارت حفيظـة الإخـوان الثلاثـة غـير الأشـقاء «سـبعاوي، بـرزان، وطبـان»، بعدما جـنّ جنونهـم، وعزلهـم مـن جميـع مناصبهـم، اهتـزّت العائلـة التـي كانـت تتظاهـر بالترابـط، خاصـة بعـد الاعتـماد عليـه في أكثـر مـن وظيفـة رفيعـة، أصبحـت الدولـة منشـغلة بمكائـد البـلاط، والحسـابات الشـخصية، بالضغينـة المضمـرة ومـا صعـود نجـم الابـن الثـاني «قـصي» الـذي لم يقـل خطـورة عـن شـقيقته، وفي الجانـب الآخـر كانـت جبهـة مفتوحـة مـع «عـلي حسـن المجيـد»، وأخيـه «عبـد حسـن المجيـد».

إضافـة إلى أن هنـاك دورة أخـرى مـن أقربـاء العائلـة أخـذت تزيـح إحداهـا الأخـرى. للتقـرّب مـن «السـيد الرئيـس» تجمـع بينهـم علاقـات هشّـة، عائلـة تراقـب الأخـرى، بغيـة المكيـدة، بأخـذ مكانتهـا.

دولـة القرابـة باتـت تأكلهـا التصدّعـات وتهـترئ، صـار كل فـرد فيهـا يعيـش في جحيـم لا يطـاق مخافـة أن يلفّـق القريـب لقريبـه وشـاية أو دسيسـة مبـاشرة. الجحيـم الـذي لـن يسـتثني أحـداً ابـدا، سـوى أولاده وإخوتـه وكسـبهم قـوة إضافيـة بـات الـكل يركـض بحميّـة مـن أجـل

التقـرب منـه وارضائـه بـلا هـوادة.

بـات يشـعر بالقـوة أكثـر مـن قبـل كلـما زادت الخلافـات بينهـم.. قـوة تـوازي الأخـرى في إدارة الدولـة، وبذلـك التنافـس صـار الجميـع يراقـب الجميـع، ويحـاول كل منهـم أن يعطيـه أقـصى مـا يسـتطيع مـن جهـد، وبطبعـه كان يختـار الأكثـر قسـوة والأكثـر شراسـة مـع موظفيـه، مـن أجـل تمتـين الدولـة التـي يريدهـا.

لم ينتبـه إلى أن حفيظـة الضبـاط الكبـار أثـيرت ووصلـت إلى التذمّـر، فالمناصـب الخطـيرة تتطلـب العلميـة، والمهنيـة.

ولم يختلـف «عبـد حمـود» في بدايـة صعـوده عـن «حسـين كامـل» كمخـادع وثعلـب ماكـر، مـا أن تثبـت حتـى صـار يحـدد مـن صلاحيـات كل مـن معـه، ومـن حـول «السـيد الرئيـس».

الـذي صـار يشـير عـلى الرئيـس تمتـين جـدار الحمايـة مـن حولـه شـخصيا، وتقويـة الحـرس الخـاص، بأسـاليب جديـدة. خاصـة بعـد أن أعلنـت السـيدة الأولى عـن شـكوكها حـول سـقوط طائـرة شـقيقها الـذي كان يتذمـر مـن تصرفاتـه السـيئة الصيـت، وربـما بتخطيـط مـن «الصهـر»، حيـث انـه أعـرب علنـاً عـن طموحـه ان تكـون وزارة الدفـاع لـه أيضـاً. وان زوجهـا ليـس ضليعـاً في الأمـر، بعـد ذلـك سـاءت العلاقـة بـين الأم

وبنتيّهـا، ممـا أدى إلى علاقـة سـيئة بـين «عـدي» المرتبـط عاطفيـا بأمـه، مـع زوجـيّ شـقيقتيّه، وأخـذ الدخـان يتصاعـد.

****

ذات مـرة تحدثـت في مقـال نشرتـه في مجلـة «الأمـن القومـي» التـي كنـت أرأس تحريرهـا، عـن روايـة «سـباق المسـافات الطويلـة» التـي كتبهـا «عبـد الرحمـن منيـف»، والتـي يصـف مـن خلالهـا وضـع الـشرق الأوسـط في عمـل أدبي صـدر في عـام ١٩٧٣. يكشـف فيهـا عـن رؤيـة سياسـية دقيقـة في مجريـات الصراعـات السياسـية والاجتماعيـة والثقافيـة التـي تجـري سرّا وعلانيـة حـول مناطـق النفـوذ وخصوصـا الـشرق الأوسـط، عـبر الضابـط البريطـاني «بيـتر»، الـذي عمـل في فـترة مـا بـين الحربـين العالميتـين، وطبيعـة علاقتـه بِـ «شـيرين»، المـرأة العربيـة الجميلـة والمتحـررة. تلـك الروايـة لم تُقرأ جيـداً، لأنهـا أكـدت عـلى دور المخابـرات المعنـي بالدبلوماسـية. بقيـت تلك الروايـة تحرضنـي لأن أكتـب عـن تلـك الأسرار التـي اكتشـفتها منـذ عـام ١٩٧٠ في ١١ آذار يـوم وصـولي «موسـكو» وعـن طبيعـة مـن كلفنـي، عـن متانـة تلـك العلاقـات الدفينـة التـي تسـمي «الخونـة» في هـذا البلـد، أحكـي عـن علاقـات ذلـك التنظيـم القائـم تحـت رعايـة «الكـي جـي بي»، وطبيعـة مجموعـة الـتروس ناقلـة الحركـة المكشـوفة، التـي في ظاهرهـا غـير باطنهـا،

تراهـا تروسـاً تـدور عكـس بعـض، ولكنهـا تنقـل الحركـة إلى مصـدر واحـد.

****

منـذ الخطـاب القصـير الـذي ألقـاه «السـيد الرئيـس» في قاعـة السـينما في بدايـة تسـلمي المنصـب، لم يجـرؤ أحـد بعـده أن يخالفنـي الـرأي، ويلجـأ إلى غـيري، وأني بقيـت تحـت المراقبـة السريـة التـي اسـتحكمها «بـرزان» حـولي، عـلى الرغـم مـن أنـه يظهـر عـدم علاقتـه بجهـاز المخابـرات، إلاّ أنـه بقـيّ يعـده جهـازه الـذي يحلـم أن يكـون مديـره إلى الأبـد، وبقيـت عينـاه مفتوحتـين حـولي، يقتنـص التـصرف الـذي يريـد منـه أن يعتـبره تصرفـا خاطئـا ويبالـغ فيـه حتـى يثبـت أنـه اختـار الرجـل الخاطـئ، وحـدث أن الرئيـس اسـتبعد مـن مكتبـه «د. محسـن خليـل» بعدمـا أوشـى بـه «عبـد حمـود»[1]، وسـنده «حسـين كامـل» قبـل أن تتقاطـع مصالحهـما مـع بعـض.

كان اسـتبعاده مؤقتـا حـين حـرم مـن راتبـه وحتـى من سـيارة تنقلـه، ولم يكـن متهـماً بـشيء سـوى ملاسـنة بينـه وبـين «عبـد حمـود» جعلتـه يُقصى.

(١) اسمه الكامل «عبد حميد محمود خطاب الناصري» ١٩٥٦ تولد قرية العوجة ضابط صف عراقي تدرج بالرتب إلى ان أصبح برتبة فريق وكان يعد الساعد الأيمن للرئيس العراقي صدام حسين

استدعيت «محسن خليل» وكلفته بإعداد ملخصات كتب قام بواجبه على أحسن وجه، وقررت توظيفه في موقع ثقافي يليق بمنزلته العلمية، وبحسب صلاحياتي الإدارية، ودون استئذان من الرئاسة، تم تخصيص راتب وسيارة تنقله.. ولم يكن من عصابة الضباع إلّا أن تتحد عليّ، للوشاية بكسر أوامر «السيد الرئيس»، وأن ذلك التصرف سوف يكون تمهيداً لعصيان قادم.

******

حصدت المهمة التي كلفني بها «السيد الرئيس» إلى المغرب بأفضل النتائج، حسبما يرتجى منها، حيث وافقت المخابرات الأمريكية على الاجتماع بالقيادة العراقية، بعد خمسة أشهر من غزو الكويت، ونزولاً عند رغبة الأطراف لتجاوز الأزمات الكارثية وتحدد في كانون الثاني ١٩٩١ تخول به «برزان» بصفته الرجل الثاني في الدولة، مع «جيمس بيكر»[١] وزير الخارجية الأمريكية، في جنيف الذي وصف الاجتماع أنه «لقاء الفرصة الأخيرة» لمنع وقوع حرب بين قوة عظمى وبلد

(١) الذي سبق له زيارة بغداد خلال الحرب العراقية الإيرانية (١٩٨٠-١٩٨٨). «دونالد رامسفلد» في ١٩٨٣ بصفته مبعوثا رئاسيا خاصا إلى الشرق الأوسط في عهد «رونالد ريغان».

محدود القوة كالعراق، وتفاجأ «برزان» في اللحظات الأخيرة أن مهمته في المفاوضات تحولت بأمر مباشر من «السيد الرئيس».. إلى «طارق عزيز» بديلاً عنه.

الأخير بدوره بدا متصلباً مع المبعوث الامريكي، بدلاً من أن يكون دبلوماسيا مهنياً. مبتعداً عن مناقشة الشروط الأساسية، ويشرح لهم «أن العراق دولة لها عمق تاريخي» وكأنما الأمريكان يجهلون ذلك- إضافة إلى أنه تراجع ونقض الثقة بينه وبينهم، في عزل «برزان» الذي أبدى مرونة وفق ما تخوّل به بداية الأمر، الموافقة على جميع الشروط التي تقتضي إيقاف الحرب، بضمنها إجراء انتخابات نزيهة بعيدة عن دولة العائلة، ولم يرق ذلك لِـ «السيد الرئيس»، حتى أتصل به هاتفياً وطلب من «برزان» أن يترك مهام وزارة الخارجية إلى وزير الخارجية «طارق عزيز»، من أجل أن تتغير النتائج وفق الإرادة الروسية.

لكنه عاد في الوقت نفسه إلى توجيه «برزان» لنسج علاقات جديدة مع «إيران» عدو الأمس، وعقد عدة لقاءات مع الإيرانيين في دول محايدة حتى أعطوه الضوء الأخضر، ليتم التبادل التجاري على المستوى المحدود، بين البلدين الجارين، وتم تبادل رسائل بين الرئيسين، وأعلن فيها اعتذار العراق عن حربه التي امتدت ثمان

سنوات، وكأنها نزق عابر.

عسى ذلك يوحي للأمريكان الذين كانوا على استعداد تام للحرب، بتهديد ضمني أن العراق سوف لن يكون وحيدا في حال اشتعال الحرب ضده.

كل ذلك التخبّط، جعل الدبلوماسية العراقية في حالة تأرجح، وكشف الضعف النفسي بزيف الجدار الحديدي الذي تتباهى به القيادة، وتأكد للعالم كله أن الأمريكيين قادمون إلى تغيير النظام في العراق بأي ثمن.

وفي الوقت ذاته كلف «برزان» بفتح حسابات مالية، جديدة، ليتم نقل الأموال الضخمة إليها، أودعت في مصارف «جنيف». إضافة إلى منح نفسه حرية غير عادية داخل حزب البعث داعياً فيها إلى «إحلال الديمقراطية» في العراق وإلى «وحدة» بدون إكراه، مع الكويت. وفي داخل مجلس الوطني أطلق ديمقراطيته الفردية الحبيسة مخالفاً قانون «الموت لكل معترض»، ولم يكن سوى أداة تنفيذية يشبه الحمار الذي ينقل الذهب، ولا يأكل سوى البرسيم الممتاز الطازج، والمطيع الذي لا يتأخر في مهمة.

******

تمكــن البريطانيــون وفــق المعاهــدات مــن تنصيــب الملــك «فيصــل الأول»[1] الـذي سـوف يرعـى مصالحهـم، لأجـل أن يسـتفيدوا، مـن موقـع العـراق الاسـتراتيجي، النقطـة الأكثـر أهميـة التـي يبنـي عليهـا الغـرب آمالـه، مركـز العـالم، وقلـب الكوكـب الأرضي، لذلـك عملـت بريطانيـا عـلى إزاحـة مخلفـات العثمانيـين بشـتى السـبل وعملـت عـلى إنشـاء بنيـة تحتيـة أساسـها النظـام الإداري الـذي يعتمـد الملـك الهاشـمي، العـربي، والـذي اختـير بـذكاء بالـغ فهـو ينحـدر مـن سـلالة نبـي العـرب ورمزهـم الروحـي، والتخلـص مـن خرافـة دولـة الخلافـة التـي ارتكـزت عليهـا الدولـة العثمانيـة، والتـي حكمـت العقـول بالخرافـات والفقـر. واثنـاء ذلـك اسـتطاعت المخابـرات السـوفيتية المولـودة مـن رحـم الحـروب الأهليـة أن تركـب الموجـة بالتغلغـل إلى المجتمعـات التـي بقيـت فيهـا النعـرات القوميـة، وعملـت عـلى تعزيزهـا وصناعـة أحـزاب مخلصـة لهـا. مثلـما اسـتخدم الإنكليـز نفـس الأدوات للتخلـص مـن النفـوذ العثـماني، وإزاحته.

(١) «فيصـل الأول» هـو ملـك عراقـي، وسـوري سـابق، أحـد أفـراد الأسرة الهاشـمية، قائـد عسـكري وسـياسي بـارز في الحـرب العالميـة الأولى والثـورة العربيـة ضـد الدولـة العثمانيـة. ولـد في الطائـف في عـام ١٨٨٥، وتعلـم في الأسـتانة ومكـة ودمشـق، وانتخـب عضـوا في البرلمـان العثـماني. ثـم تعـاون مـع البريطانيـين في الثـورة العربيـة، ودخـل دمشـق عـلى رأس الجيـش العـربي في عـام ١٩١٨. أعلـن ملـكا عـلى سـوريا في عـام ١٩٢٠، لكنـه عـزل مـن قبـل الفرنسـيين، بعـد شـهور قليلـة. انتقـل إلى العـراق بدعـم بريطـاني، وتـولى ملكيتـه في عـام ١٩٢١، وحكـم العـراق حتـى وفاتـه في عـام ١٩٣٣.

كذلك حاول السوفييت التخلص من الهيمنة الإنكليزية على المنطقة، وضرب النظام المدني الملكي الذي جاء به الإنكليز، بالانقلاب على الدولة الملكية وتغيرها الى نظام جمهوري عسكري، بالاعتماد على ضباط شرسين افتعلوا المذابح في البيت العراقي لتثبيت نظامهم، وطرد النظام الذي سبقهم، ثم استقدموا من دول الاتحاد السوفيتي الخبراء ليتم تعزيز الدولة التي تناسب نظامهم، في الوقت الذي كان البلد فيه يحتاج إلى قدرات أبنائه أكثر مما يحتاج إلى قدرات الخبراء «الروس» الذين باتوا منتشرين في أغلب مفاصل الدولة، مشكلين أكبر ثقل أمني في المنطقة، إضافة إلى إن خزينة العراق تدفع لهم المبالغ الخيالية بحجة التدريب، وبناء الجسور، وإنشاء السدود وتشغيل المحطات الكهربائية، وتطوير المصافي لتكرير البترول الخام. لذلك توجهت روسيا إلى تأميم البترول العراقي لصالح السوفييت، وتخليصه من تبعية الشركات الغربية التي تديرها بريطانيا.

******

كان مقتل «عدنان خير الله» قد شكل لي ضربة قاصمة، إذ كان ذلك الرجل الذي لا يميل إلى دولة القرابة في إدارة الدولة، يحلم بدولة مؤسسات بحاجة إلى قدرات حقيقية لإدارتها، ويميل إلى المهنية

الـصرف. وليـس مـع أي نظـام قمعـي غـير مـرن تقـوم عليـه الدولـة الزائلـة، ولابـد مـن إيقاظهـا قبـل أن تكـون في لحظـة مـا دولـة مكسـورة، وكان الرجـل مؤمنـا بـأن تلـك الحلقـات القائمـة عـلى الجهـل تثقـل كاهلها، وتجعلهـا واهنـة عرضـة للكـسر والاخـتراق.

****

هنـاك قـرار لم يفهمـه أحـد، تـمّ نقـلي عـلى وجـه السرعـة إلى زنزانـة في إحـدى غـرف القـصر الجمهـوري، وتعيـين طبيـب بغـرض متابعتـي، ولكن ذلـك لم يـدم لأكثـر مـن أسـبوعين حتـى تمـت إعـادتي إلى زنزانـة الحاكميـة.

تعاطـف معـي القـاضي عندمـا عرضـوني عليـه، فلـم يجـد دليـلا يدينني بتهمـة الجاسوسـية، إذ تقتـضي المهنيـة في أن ينظـر القـاضي بدقـة في ملـف المتهـم، وأن يتفهـم جيـدا الدوافـع الحقيقـة التـي أوصلتـه إلى خيانـة بلـده، وعندمـا سـألني حـول مـا قدمتـه في أوراق الاعترافـات، ومراجعـة مـا توفـر تحـت يـده القـاضي كتبـت أننـي رجـل مسـؤول وضعـت توقيعـي في اتفاقيـات أمنيـة مـع رؤسـاء مخابـرات في دول عديـدة، أنـا أمثـل الدولـة والقانـون، ولا يحـق لأحـد اتهامـي بالتخابـر مـع دولـة أجنبيـة، وسـبق أن وضعـت توقيعـي مـع أغلـب مـدراء مخابـرات العـالم للحفـاظ عـلى أمـن بلـدي.

******

عندما بدأت حرب «عاصفة الصحراء» في مطلع عام ١٩٩١ أتهموني بأني حاولت الانتقال سرّا من بغداد إلى مكان آخر خارجها، وأني قصدت صديقاً كردياً اسمه «سردار» يعمل بالتجارة والمقاولات، سبق أن تعاون معنا، حتى يسهل السفر إلى شمال العراق مؤقتاً، غير أن صديقي الكردي خشي من مساعدتي، وسجل إفادته ضدي، ذاته الصديق الذي حررته ذات يوم من بين مخالب «حسين كامل». تمّ استخدامه ضدي كشاهد زور.

******

تم عزل وزير الداخلية، الأخ غير الشقيق «وطبان» من منصبه عندما أراد المرور والإشارة حمراء، ولم تنفتح له الإشارة بسرعة، أخرج مسدسه، وأطلق عليها النار لكي يعلم الناس، بأنه لن يتوانى بمعاقبة أحد لا يحترم الدولة حتى ولو كانت إشارة المرور.

منذ الصغر يبقى الإنسان يكتسب الصفات الطيبة، وتبقى نقشاً، وكأنما تصير طبعاً حقيقيا لا يتغير. التعليم الدراسي له دور مهم على مسيرة الإنسان في كافة مراحل عمره.

كل أسـبوع حفلـة تحقيـق، وباتـت كل يـوم، وصـارت كل سـاعة. عـلى مـدى سـتة أشـهر، أحدثـت شرخـاً بـين المقاومـة والإرادة والانكسـار إلى الأبـد.

القسم الثاني

بداية كالنهاية

ثمـة أكثـر مـن سـبب حقيقـي دفعنـي للتعاطـف مـع شـخصية هـذه الروايـة، أولهــا إني كنـت قـد تعرفـت إليهـا مصادفـة، المقابلـة الأولى والأخـيرة، دون أن أعرفهـا مـن تكـون! كان ذلـك في أواخـر صيـف ١٩٩٠م، أي قبـل أن يتـم احتجـازه ويجـري تعذيبـه، ومـن ثـم إعدامـه.

تـم ذلـك التعـارف أثنـاء إحـدى الرحـلات التـي كنـت أقـوم بهـا برفقـة صديقـي «نـواف البيجـاوي» مـا بـين بغـداد وبيجـي تقريبـا مسـافة قدرهـا «٢٢٠ كيلومـتر» رحلـة شـهرية، ليسـت منتظمـة.. كنـا نختارهـا يوم الجمعـة، مـن أجـل الذهـاب إلى «بغـداد/ البـاب الشرقـي» ذلـك اليـوم الحيـوي الـذي يجـد فيـه كل باحـث عـلى مـا لم يعهـده في بقيـة الأسـواق خاصـة الأجهـزة الإلكترونيـة، إضافـة إلى مختلـف أنـواع الأشرطـة الموسـيقية، النسـخ الاصليـة، والنـادرة إلى أنـواع سـاعات اليـد الغاليـة أو التحـف الغريبـة، ومختلـف الأشـياء، مـن كل مـا لا نتوقعـه.

كأنـما صـار يكشـف لي عـن ميلـه إلى تعلـم الموسـيقى، ويحـبّ أن يسـمع منـي بعـض الشروحـات، والمفاهيـم الأساسـية عـن الموسـيقى عامـة، وكنـت أغـدق بـما أعرفـه مـن معلومـات، طـول الطريـق الـذي يمتـد حـوالي السـاعتين أو أقـل بقليـل في الذهـاب أو الإيـاب.. الونيـسُ المسـالم الـذي ليـس لـه أي ميـل في السياسـة.

بغيتـهُ مـن تلـك الجـولات شراء أقـراص مدمجـة تُفعِّـل لـه «سـتريو» سـيارته الحديثـة نـوع «Mercedes-Benz W14»، التـي وردتـه مـن بـين الغنائـم الكويتيـة التـي عـاد بهـا الحـرس الجمهـوري الخـاص إلى العـراق، وتـمّ لـه اسـتملاكها، أصحبـهُ في جولـة تبـدأ مـن نصـب الحريـة، وتنهـي عنـد شـارع المتنبـي المتخصـص ببيـع الكتـب. وبعدهـا العـودة في نفـس اليـوم، ولم يكـن المشـوار مرهقـا بفضـل سـيارته المكيفـة، والتـي تكـررت عـدة مـرات عـلى فـترات متباعـدة.

وذات مـرة اسـتأذنني، أثنـاء ذهابنـا مـن «بيجـي» إلى «بغـداد» في أن نعرج عـلى إحـدى المـزارع في قضـاء الـدور، مـن أجـل أن يرافقنـا «صديـق عزيـز» حسـب تعبـيره، نوصلـه في طريقنـا إلى «بغـداد»، مـن مزرعتـه القريبـة مـن الشـارع العـام.

وصلنـا عنـده فوجدنـاه بانتظارنـا مسـتعداً بيقـينٍ أن صاحبـه لـن يتأخـر عنـه كثـيراً. بينهـا موعـد سـابق.. بـدى لي في مطلـع الخمسـينات مـن العمـر يرتـدي دشداشـة رصاصيـة، ويضـع عـلى كتفيـه رداءً خفيفـاً يشـبه السـترة، رغـم الجـو الحـار، نظيفـة ومكويـة، أظهرتـهُ أكثـر أناقـة، نزلـتُ ورجوتـهُ أن يكـون في المقعـد الأمامـي، وجدتـه يـصرّ عـلى الجلـوس في المقعـد الخلفـي، متحججـا بالقـراءة، وفعـلا شرع بفتـح كتـابٍ كان يحملـه في مغلـف بعـد أن

مسح نظارتيه، ولفّ مسبحته القصيرة حول معصمه.

بادر صديقي بتقديمه لي باختصار:

- عمي أبو علي!

سكت، ثم واصل مقدماً إياي بالتقديم الوافي «محمد الأحمد» كأنما شفرة بينهما، وطريقة غريبة في التعريف، قال عني:

- خدم برتبة عريف مُكلّف، أثناء الحرب العراقية الإيرانية، وتمّ انتدابه منها قبل ثلاث سنوات إلى محطة «بيجي» الحرارية، وفرض عليه التصنيع العسكري دوام ١٢ ساعة في اليوم، اضطره البعد عن أهله للسكن في «بيجي»، إضافة إلى أنه يعمل في ورشة لتصليح مسجلات السيارات، من بين خيرة الأصدقاء، «ولا أُخيره عليك سيدي».

انتبهتُ إلى نبرة «نواف» عندما تكلم مع الرجل زلّ لسانه، واستخدم لازمة «سيدي»، التي غالبا ما تستخدم كفارق طبقي بين الجندي وضابطه المسؤول، سرعان ما عاد إلى تعديلها «عمي أبو علي».

كان فارق العمر بيننا كبيراً ما بين الخمسينات ونحن في الثلاثينات من العمر، توجبت الحرص على إظهار الاحترام، كان الرجل دائم

الابتسـام، يحـرص عـلى اظهـار ذلـك حتـى- عـبر نـبرة صوتـه، يتكلـم بهـدوء لم أعهـد أحـداً مـن بـين أهـل المنطقـة الذيـن يتباهـون بتمكنهـم مـن اللهجـة التكريتيـة، ويتفاخـرون بارتفـاع نبرتهـا كصديقـي «نـواف»، بـل عهدتـه يحـرص عـلى أن تبقـى بيننـا لهجـة بغداديـة صرف- بعـد أن عـرف عنـي بغـدادي الأصـل، سـألني عـن تخصـصي في العمـل، آثـرت أن أخـبره بصـدق أني لسـت متخصصـا بـشيء قـدر الميـل إلى الآداب والفنـون، كأنـما أوحيـت لـه عـن فضـولي بمعرفـة عنـوان الكتـاب الـذي معـه. أدار واجهـة الكتـاب نحـوي «أولاد حارتنـا» لنجيـب محفـوظ، قلـت:

- إحـدى الروايـات العربيـة المهمـة التـي أشّرتـهُ للحصـول عـلى نوبـل ١٩٨٨.

لم أعـرف كيـف عـبرت عـن دهشـتي نحـو العنـوان المثـير، فأوجـد بيننـا اتفاقـاً مقارنـاً بأنهـا القصـة الدينيـة التـي كانـت تحكـي عـن بـدء الخليقـة، مثلـما كان يحاكيهـا كتـاب الكامـل في التاريـخ، بواقعيـة بشريـة عـن أولاد لرجـل يسـكن في حـارة، ويحكمهـا، اسـمه الجبـلاوي، وثـم اسـتمر يلخـص حكايـة خـروج آدم عليـه السـلام مطـرودا مـن الجنـة، بعـد مخالفتـه رغبـة أبيـه «الجبـلاوي» وابنـه أعطـاه اسـم «أدهـم» الذي يـوازي اسـم نبينـا «آدم.

بقيـت أصغـي إليـه وهـو يضيـف طـراوة عـلى حـلاوة مـا اطلعـت عليـه

في السـابق مـن محتـوى القصـة، كأنـما ذلـك الحـوار الشـيّق جعلـه ينقطـع عـن القـراءة ليشـارك متعـة الوقـت حتـى وصولنـا إلى «بغـداد»، الـذي قلـص المسـافة إلى درجـة لم نشـعر بهـا.

حـرص صديقـي عـلى ايصالـه حتـى بـاب بيتـه في مجمـع دجلـة في الجادريـة، وشـكرنا بـأدب جـمّ كأنـه عـبر عـن سـعادته بالتعـرف إليّ، ولم نقبـل دعوتـه للاسـتراحة مـن «وعثـاء السـفر» حسـب تعبـيره، وآثرنـا أن نودعـه، لكنـه في اللحظـة الأخـيرة ناولنـي الكتـاب، وقـال تفضـل لـدي نسـخة أخـرى منـه، هديـة مـن أحـد عشـاق أدب «نجيـب محفـوظ».

ودعنـاه ثـم أكملنـا مشـوارنا إلى البـاب الشرقـي، بعـد أن تـرك لـديّ ذلـك اللقـاء مـع «أبـو عـلي» انطباعـا بالغبطـة، إن المتعلمـين هـم المتحـضرون، هـم الأكثـر ملامسـة للهـواء النقـي، ويتنفسـون بحريـة مـلء صدورهـم مـن أجـل أن يعمقـوا معنـى الحريـة، مخلصون لإنسـانية الإنسـان في دواخلهـم، وغالبـا مـا ينتجـون تفاعـلا حقيقيـا مـع حياتهـم المشـتركة بالآخريـن الذيـن يشـاركونهم الوطـن، عـلى عكـس الذيـن فاتتهـم فرصـة التنفـس، فالمتعلمـون راسـخون في المدنيّـة، يواصلـون الحيـاة حبّـاً بهـا، بثقـة مـن يعـرف الطريـق، ودائـما متوقعـون للنتائـج الخاطئـة فـلا يقحمـون الآخريـن في مخاوفهـم، المتعلـم عـلى الـدوام يراجـع نفسـه، قبـل أن يقـرّ أي

قـرار.. سـبق لي أن قـرأت الروايـة وأعجبـت بهـا، ولمـا وضعتهـا عـلى رف الكتـب صرت كلـما أنظـر إليهـا، يعيـد لي ذلـك التذكـر، وجـه مـن صاحبنـا ذلـك المشـوار، بقـي يخامـرني شـعور أن بعـض الكتـب تبقـى علامـات غـير قابلـة للنسـيان، وخاصـة تلـك الكتـب التـي نحبهـا، باتـت ذكريـات باطنـة تتحـول إلى ظاهـرة كلـما نجـدد النظـر إليهـا.

بعـد أسـابيع عـدة؛ حينـما قابلـت «نـواف» سـألت عنـه، أخـبرني بأنـه في سـفرة إلى خـارج العـراق إلى «لنـدن» ومـن هنـاك إلى «أمريـكا». صرتُ أطمـع بمقابلتـه ثانيـة لذلـك بعدهـا تكـرر سـؤالي عنـه، كأنـما كنـت الطالـب الـذي يبحـث عـن أسـتاذه كـي يسـأله سـؤالاً صـار يجـول في بالـه، كان ذلـك الشـعور ينتابنـي كلـما وجـدت مدينـة «بيجـي» بعيـدة عـن خـط الأفـق، بـلا صحبـة أصدقـاء، كأنهـا معلقـة في فضـاء مـن سـدوم خانـق لم أسـتطع أن أتآلـف معـه، كنـت معلقـا في ذلـك الفضـاء الرخـوِ وأشـعر بالاختنـاق كأنـما السـؤال بحـث عـن صداقـة يحضرهـا مثقـف يمكننـي التعامـل معـه، ولم يكـن قـد صادفنـي مثلـه حتـى في أحلامـي، وبقيـت كلـما سـألت عنـه، كأنـما أقـصي ذاتي عـن ذلـك الفضـاء.

بقيـت أسـال بإلحـاح عنـه؛ إن كان يـراه، وذات مـرة قـال لي: «يؤسـفني أن أخـبرك أن (أبـا عـلي) جـرت عليـه قصـة غريبـة وعجيبـة سـوف

أحكيها لـك فرصـة أخـرى»، وكلـما أقابلـه في الشـهور التاليـة كان يتفلّـت مـن الإجابـة، بالوعـد المؤجـل إلى يـوم مـا تـأتي فيـه الفرصـة المناسـبة كـي يـروي لي فضـولي. وفي كل مـرة يطعـم الأخبـار بالنـزر القليـل مـن الأجوبة، «بعديـن أحكـي لـك».

وجـاء اليـوم الـذي قـال لي؛ برجـاء يشـبه نصيحـة تحـذرني مـن مواصلـة السـؤال عنـه، وأضـاف:

- الله يرحمـه المسـكين «لفّـه القايـش»، نطقهـا كمـن ينعـى شـخصاً عـزّ عليـه فراقـه. لحظتهـا تـرك عنـدي خوفـاً كمـن في محتـوى النصيحـة التـي تحمـل في طياتهـا تهديـدا، وكأنهـا تقـول ارحـم نفسـك قبـل أن تفتـح عليـك بابـاً ربـما تكـون مـن الجحيـم.

منـذ تلـك اللحظـات قـررت أن أعـرف مـن كان ذلك الشـخص، وكيف «لفّـه القايـش؟» وأخـذهُ إلى المـوت! الفكـرة تحـضر إلى ذهنـي، وكأنهـا تكـبر تدريجيـا، وصرت أتخيـل كيـف يكـون عنـدي مـا يسـتحق أن أبحـث عنـه، مطلـب إبداعـي مهـم تطمـح إليـه الروايـة الفنيـة، وهـو.. الحفـر في قصـة مـا، وإنصافهـا، الوضـوح سـيكون الغايـة المرتجـاة مـن تلـك الأحـداث، رغـم أني لم يكـن عنـدي سـوى تلـك الرغبـة الدفينـة لأن أكتـب روايـة بشـخصية واحـدة، تحكـي قصـة تاريـخ مطمـوس، وتاريـخ مقمـوع. ومـا

أكثـر تلـك الحكايـات عـن شـخصيات أنيقـة، ولكنهـا تريـد مـن الكاتـب أن يظهرهـا ليجعلهـا تتنفـس بـين دفتـي كتـاب.

صرت عـلى يقـين أن علاقتـي بصديقـي «نـواف» كانـت كالخطـر المحدق بي، سـوف يقربنـي مـن ذلـك «القايـش»، وباتـت تشـترط التقهقـر، بـل حتـى بالانقطـاع والتهـرّب مـن مواصلـة تلـك العلاقـة. حتـى يتـم احتـواء المسـاحة التـي قضيتهـا معـه، ربـما اهتمامـي الثقـافي هـو الـذي جعلنـي (الرقـم) غـير المهـم، في حسـاب اللعبـة التـي كانـت تجـري، بينهـم، وربـما كنـت مراقبـاً، ومتابعـاً مـن أغلـب الذيـن حـولي.

أصبحـتُ أخـاف مـن الظـل الـذي يلاحقنـي، وقـد يسـحبني المـوج العـاتي إلى الحتـف.

لم يحـدث كـما تمنيـت، وموجـة الرعـب التـي صـارت تنتابنـي لم تتوقـف في هدرهـا، خاصـة كلـما اختلسـت نظـرة إلى رفّ الكتـب وفيـه كتـاب «أولاد حارتنا».

لم يبـدر منـي ذلـك إلّا أن عهـدت صديقـي «نـواف» هـو مـن صـار يبتعـد عنـي، وذلـك مـن حسـن الحـظ، حتـى انقطعـت أخبـاره هـو الآخـر، وكـم أشـعرني ذلـك بالارتيـاح كلـما طالـت غيبتـه عنـي.. حتـى اسـتمرت لسـنوات عـدة، كأنـما بطـول غيابـه يـزداد ارتياحـي تدريجيـاً، حتـى جـاء

عام العصف الأمريكي ٢٠٠٣، الذي أسقط نظام العائلة الحاكمة، والقبض على جميع أفرادها بعد أن كانت مستحوذة على مقدرات بشرية عظيمة وثرواتها الهائلة.

ولعبت الصدفة دورها بأن ألتقي بصديقي الذي عرفته باسم «نواف» مجدداً بعد نيسان ٢٠٠٣، وكانت المرة الأولى التي تجرأت فيها على السؤال بشجاعة أكبر عن حقيقة ذلك الشخص الغامض «أبا علي»، وأقسم لي بأنه سوف يطلعني في المرة القادمة، ويوافيني بكل التفاصيل التي ودَدْت معرفتها، حتى أغراني بأن يسلمني صورة عن جميع الأوراق المهمة التي كتبها بخط يده أثناء التحقيق، عسى أن أكتب عنه كتابا ينصفه.. وأضاف لي «كنت من بين الثلاثة الذين أجروا التحقيق معه في قضية تجسس، وإثراء غير مشروع»!

ثم أضاف: «كنت أيضا من بين الحاضرين لحظة إطلاق النار عليه».

قال أيضا: «في نهاية أيلول/ ١٩٩١ ألقي القبض عليه في مبنى حاكمية المخابرات بشارع ٥٢ وخضع للتحقيق ووجهت إليه تهمتان: الأولى.. سياسية أمنية باعتباره جاسوساً لألمانيا الشرقية، والاتحاد السوفياتي. والتهمة الثانية.. إثراؤه غير المشروع والحصول على

عمـولات مـن تجـار ورجـال أعـمال كان جهـاز المخابـرات قـد أرسـى عليهـم مقـاولات ومناقصـات وبيـع مشـاريع صناعيـة. وأعتقـل معـه كل مـن عديلـه المهنـدس المقـاول «فـلان» ورجـل الأعـمال وصاحـب مصانـع الألبـان الشـهير «فـلان»، والفنـان المسرحـي «فـلان»، والأخـير كان يرافقـه خـلال زيارتـه إلى ألمانيـا ويقـوم بمهمـة الترجمـة لـه وكان يعمـل مسـتخدماً في السـفارة العراقيـة في برلـين».

ثـم واصـل القـول ولـو لم أكـن مكلفـاً بمتابعتـه تحريريـاً، لكنـت مـن بـين المقبـوض عليهـم!

اسـتغربت ممـا أخـبرني بـه، وتمنيـت عليـه إخبـاري واطلاعـي عـلى تلـك الأوراق، التـي بقيـت بحوزتـه، وبالفعـل تـم اللقـاء بـه مـرة أخـرى وأخـبرني:

«في اليـوم الـذي تـم فيـه عـزل «سـبعاوي» عـام ١٩٩٢ لعـدم كفاءتـه، حـل محلـه «صابـر عبـد العزيـز الـدوري[1]». حيـث أعتـبره الجميـع حدثـا سـعيدا، لأن الرجـل مشـهود لـه بالمهنيـة، وأيـام «سـبعاوي» جعلـت مـن

---

(١) «صابـر عبـد العزيـز الـدوري» هـو سـياسي وعسـكري عراقـي سـابق، مـن بـين أحـد قيـادات حـزب البعـث في العـراق. ولـد في مدينـة الـدور في محافظـة صلاح الديـن عـام ١٩٤٩، تخـرج مـن الكليـة العسـكرية العراقيـة عـام ١٩٦٧، شـغل مناصـب عسـكرية وسياسـية مهمـة، مثـل مديـر الاسـتخبارات العسـكرية والمخابـرات العراقيـة، ومحافـظ كربـلاء وبغـداد.

الجهـاز مضطربـاً، حسـبما كان يـراه المنتسـبون ولم يكـن يصلـح حتـى لإدارة دائـرة صغـيرة، بذلـك طـرأ عـلى الجهـاز تغيـيرات كبـيرة.

قبـل أن تتـم مراسـيم تسـلم المديـر الجديـد حـضر كل مـن «عبـد حمـود» و»حسـين كامـل» بصحبتهـما شـخص آخـر هـو «عبـد السـلام أحمـد حسـن البكـر»، الـذي كان تربطـه صداقـة متينـة مـع «عدنـان خـير الله» والإقـرار بخصـوص امـرأة قابلـت «السـيد الرئيـس» تدعـي أن الأخـير تزوجهـا، ولهـا منـه ولـد منـذ أن كان في «البـصرة»، وطلـب مـن «عبـد حمـود» أن يسـمع بنفسـه تأكيـد ذلـك الـزواج، مبـاشرة مـن صديقـه الصـدوق، وفعـل ذلـك بهـزّ رأسـه، دون أن ينطـق بكلمـة، وكأنـه قـد وصـل إلى نهايتـه، لم يسـتطع أن ينهـض مـن سريـره. بعدهـا خـرج الاثنـان مـن الزنزانـة وبقـيَّ معـه «حسـين كامـل»، حتـى همـس بأذنـه جملـة واحـدة:

- «ناقـص.. لـولاي لمـا تقربـت خطـوة واحـدة مـن قـصر الرئيـس، وبقيـت رتبتـك حتـى اليـوم مفوضـاً عـلى أكثـر تقديـر»، ثـم جعلـه يغـادر الزنزانـة في حالـةٍ مـن الذعـر، وهـو يتحسـس مسدسـه.

لكنـه لم ينـوِ مغـادرة البنايـة، ودخـل إلى غرفـة «المديـر العـام» الـذي كان منشـغلا بجمـع أغراضـه الشـخصية، وتوضيـب (نركيلتـه) التركيـة بغيـة حملهـا معـه، ريثـما يسـتلم منـه «المديـر العـام» الجديـد.

دخـل معـه في جـدل حـول مصـير المتهـم، تحـول إلى شـدّ وجـذب، لم يـرضَ فيهـا «سـبعاوي» عـلى مـا كان يطلبـه منـه، فالأمـر بيـد شـقيقه «بـرزان»، حالمـا يرجـع، وحتـماً سـوف يقـرر مصـيره، ولكـن «صهـر الرئيـس» أصرّ عـلى تنفيـذ الإعـدام، مخافـة أن المديـر الجديـد سـوف يكـون لـه رأي آخـر في تقريـر مصـيره، وكأنـه كان عـلى يقـينٍ أن المتهـم الـذي هـو بـين أيديهـم الآن، سـوف يفلـت مـن عقـاب المـوت، لعـدة أسـباب.. أن المديـر الجديـد تختلـف طبيعتـه، ومـن المؤكـد سـوف يلجـأ إلى إعـادة النظر في ترتيـب الأوراق، وبالتـالي سـوف تجعـل منـه أمانتـه المهنيـة تحريـك الموضـوع إلى اتجـاه آخـر، وان الفـارس سـوف ينهـض مـن كبوتـه، ويكـون عليهـم أقـوى مـن السـابق، وهـم العارفـون بشراسـة خصمهـم. ويـؤدي بهـم إلى الهزيمـة المنكـرة، يعلـم جيـدا بـأن بـين يديـه أكثـر مـن ملـف ليحركـه ضدهـم. وعليـه أن يطـرق الحديـد وهـو حـار كـما يقـول المثـل، لذلـك كان الجـدل محتـداً، وحوارهمـا بقـيَّ متوتـراً، حتـى لم يكـن أمـام «حسـين كامـل» إلاّ أن يوجـه أمـره لي، بيـأس:

- «هيـا أطلـق عليـه النـار»، أخرجـت مسـدسي وتوجهـت إلى زنزانتـه، ولكنـي قبـل أن أدخـل عليـه لم أسـتطع أن أكمـل خطـواتي، كأنـما أصابنـي الشـلل، حيـث سـقط مسـدسي مـن يـدي، وتبعنـي مـن خلفـي ضابـط آخـر سـمعت منـه الإطلاقـة التـي خرقـت رأسـه.

بعدها تمت إدانتي بتهمة التخاذل، وتقرر حبسي سبعة أشهر، حتى عاد (المدير الجديد) بالنظر بقضيتي، وتمكن من إطلاق سراحي بعد أن قضيت منها ثلاثة أشهر كانت من أسوأ أيام حياتي، ونقلتُ بعدها إلى خارج الجهاز. لكني بقيت محتفظاً بتلك الأوراق التحقيقية، التي تخص اعترافاته، والتي تعمّدت عدم تسليمها كاملة، لإني كنت الموقن حتى اللحظة الأخيرة.. بأن التاريخ سوف ينصفه، وليست الرصاصة التي خرقت رأسه.

******

أعانقُها والنفسُ بعدُ مشوقةٌ إليها وهل بعدَ العناقِ تَداني؟ ❋ ابنُ الروميّ.

******

حدث الإعدام في ٣ آب ١٩٩٢م، ومنحت عائلته شهادة الوفاة في ٢٤ آب ١٩٩٢م، وتم فيما بعد اعتباره شهيد غضب.

انتهت في دهوك

١٤/ ١٢/ ٢٠٢٣ ٠٩:٣٩:٠٥ م